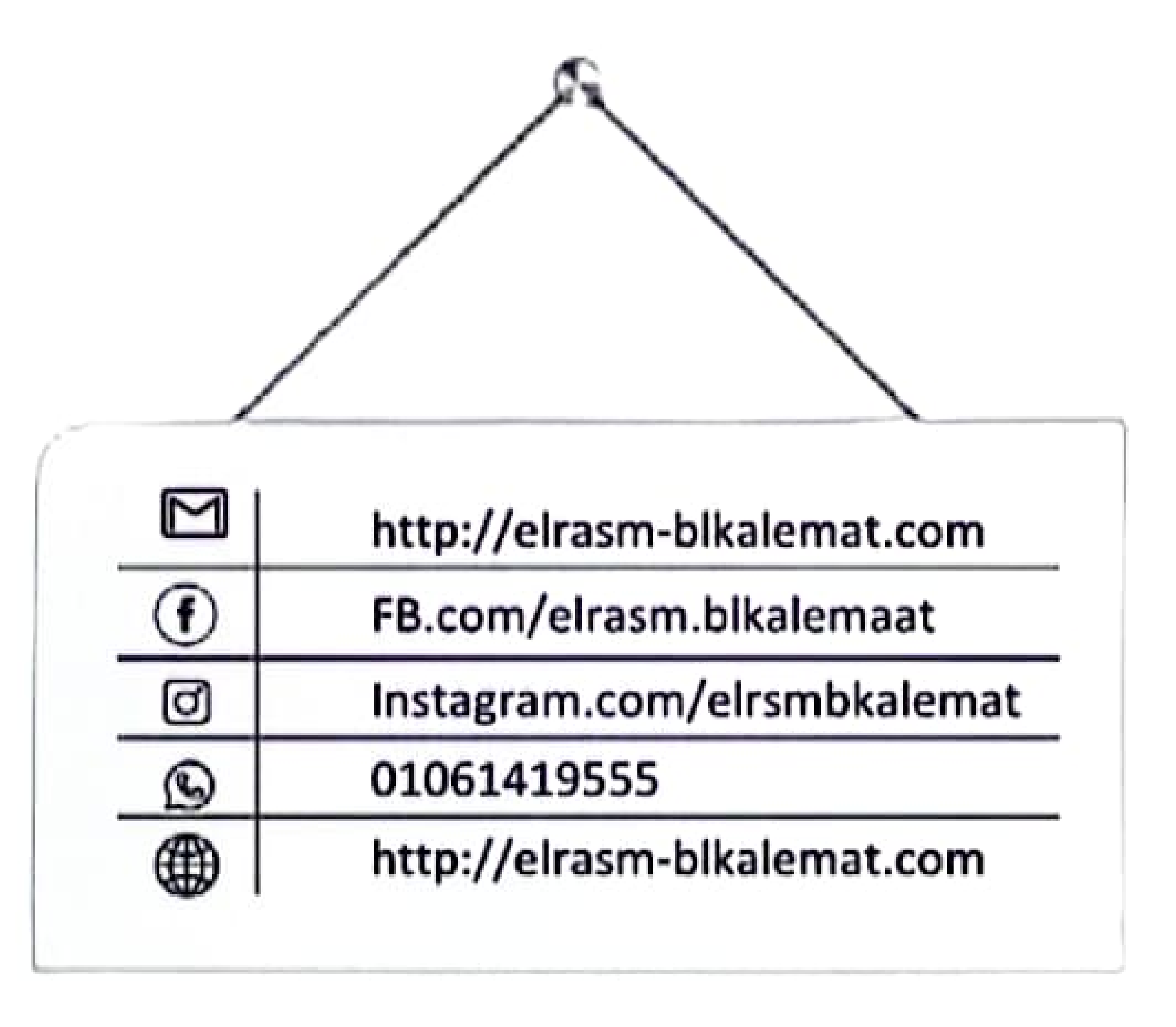


عبد الرحمن حجاج
كوابيس قبل النوم II
مصحة الموت الأسود
دار الرسم بالكلمات



عنــــوان الكتــــــاب:	كوابيس قبل النوم (الجزء الثاني).
المــؤلــــــــــف:	عبد الرحمن حجاج.
الطبعة الأولـــــــى:	٢٠٢١.
المراجعة اللغويـــــة والإخراج الداخلـــــي:	Dr.Right
تصميـم الغـــــلاف:	إسلام مجاهد.
رقـم الإيـــــداع:	2021/3126
الترقيم الدولـــــي:	978-977-6803-11-4





كوابيس قبل النوم ٢

مصحة الموت الأسود

الجزء الثاني



رواية

عبد الرحمن حجاج



إهداء



إلى الأشياء التي نفتقدها كثيرًا..

إلى كل شيء لم يكتمل..

وإلى ساكِني المَصحَّات الذين نُلقِبهم بالمجانين:

أنتم العُقلاء وليس نحن.



إهداء خاص



إلى كُل شخص خَصَّص جُزءًا مِن وَقتِه وتفاصيل يومه عشان يقرأ الرواية:

الرواية دي ليك.. للأبد.



المقدمة



انطرِدِي الآنَ من الجدولْ

مُوتِي فالكلُّ هُنَا ماتوا

وأنا اعتدتُ حياتِي أَرْمَلْ

واعتدتُ الهَجْرَ بلا سببٍ

وبرغمِ الحيرةِ لمْ أسألْ

وظلَلْتُ أسجلُ أسماءً

وأسطِّرُ خاناتِ الجدولْ

ضُنِّي إحساسَكِ ما شِئْتِ

فأنا مَلِكٌ لا أتوسَّلْ



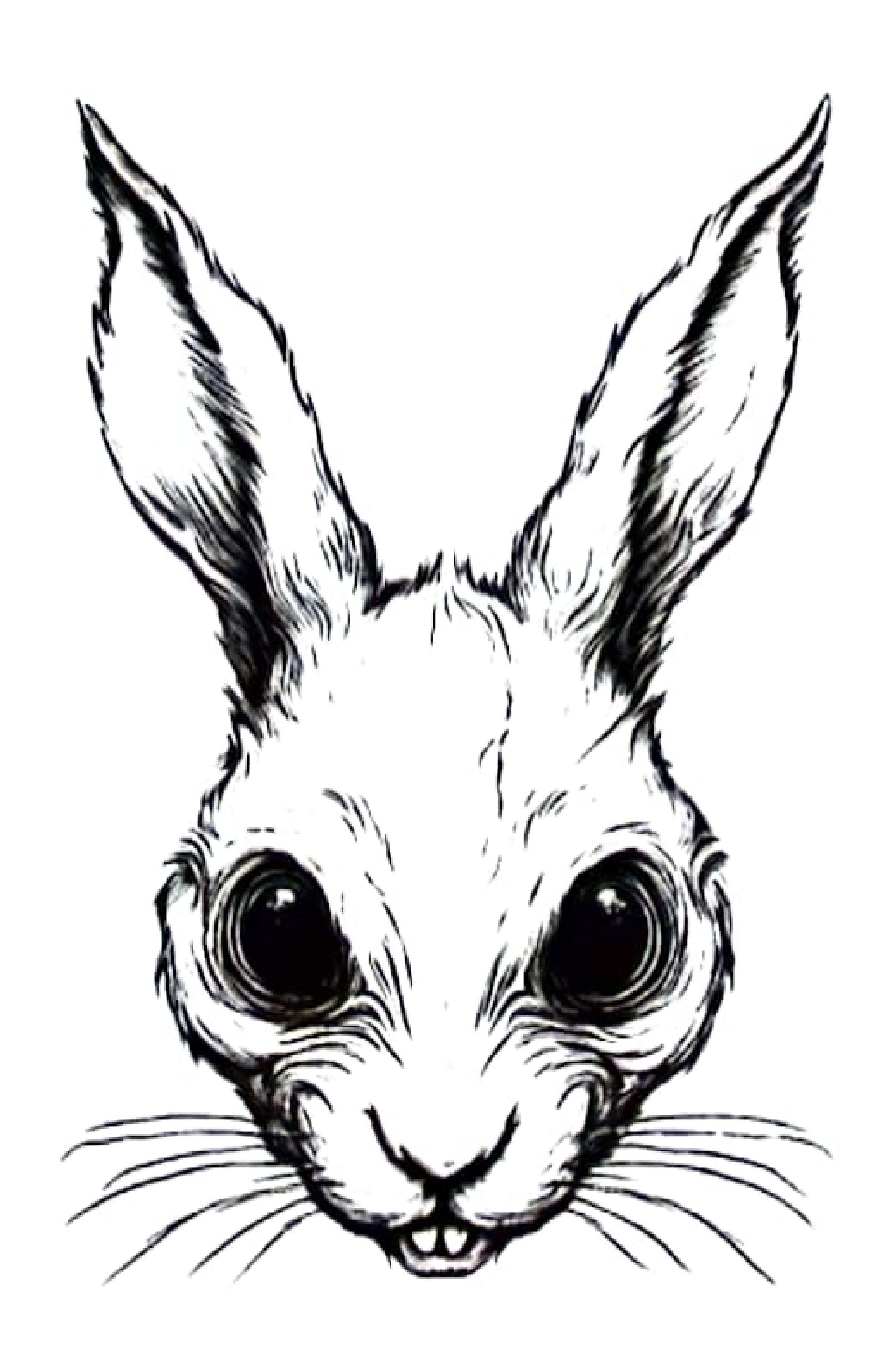
لا أبكي لفراقِ حبيبٍ، أو أترجّى، أو أتذلّلْ



حَنين جوانا يحكي

وشُوق جوانا يبكي

والدَّمع ساقية كبْت..





صياحٌ مُتداخل، أصواتٌ كثيرة ما بين نواح وهمهمة تتداخل في رأسي بلا رحمة، لا أستطيع أن أُميّز الأصوات ولا الكلمات، ولكنّها حقًا تُرهقني، تنتزع مني ما تبقّى من روحي. تتشكّل تلك الأصوات وتأخذ شكلًا بشريًا رغم كونه بعيدًا كُل البُعد عن كونه بشريًا، تمسَّك الأصوات بذراعيّ وتستدرجني إلى غُرفةٍ صغيرةٍ لا هواء فيها، أصوات سوداء كتلك القطة التي كانت تسكن شارعنا في الماضي.

الغرفة لونها يتغير، تتحول الأضواء النيون إلى الأخضر ومِن ثَمَّ إلى لونٍ بنفسجيّ مزعج للعين. أسمع عزفًا شديد القبح للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن، يعلو إيقاعُها تدريجيًا بشكلٍ مُخيف ومُقبِض للروح، وكأن الكوابيس كانت مصدر إلهام تلك المقطوعة. أُحاول أن أتماسك، أتكهّن في عقلي الباطن أنّ كان ما أراه وأسمعه الآن حقيقيًا أم أن كل هذا مِن صُنع خيالي!

الموسيقى تعلو وتتخَلّل أوصالي فأستفيق للحظات، أراه أمامي، أراه الآن بصورةٍ كاملة للمرة الأولى؛ بحُلّتِه البالية وشعرِه الأحمر المائل إلى قليلٍ من الاصفرار، يقترب مني وفي يدِه اليُسرى قناع لأرنب كثيرًا ما رأيتُه في كوابيسي، أمَّا في يدِه اليُمنى فيحمل سكينًا يصوّبها نحوي.

أصوات الأنفاس تتزايد، ولا أعلم حقًا لمن تلك الأنفاس؛ أهيَ أنفاسي أم أنفاسه هو؟!

- يونس، اِنت لازم تمشي من هنا دلوقتي حالًا.. أرجوك!

- مش هسيبك هنا، إحنا خلاص ما بقاش لينا غير بعض!



- يا يونس، عشان خاطري سيبني وإمشي..

- مستحيل، اِنتِ علمتيني أحبِّك في الوقت اللي ما كُنتش عارف حتى أحِب فيه نفسي.

كانت الصرخة التي تبعتْ الجملة الأخيرة تفوق دَوِيَّ الرعد، سكن كل شيءٍ للحظات، وبعد ثوانٍ معدودة بدأتْ تلك المخلوقات ذات وجه الأرنب تبزغ من باب الغرفة في تدافعٍ عجيب، منهم من يمشي على قدميه ومنهم من يمشي على أربع مثل الكلاب، ملامحهم يصعب رؤيتها من كثرة الدماء التي غطتْ عيني، والآن فقط أستقبل الموت كحبيبةٍ طال غيابها..





القاهرة – 1995.

في ملعب المدرسة الكبير، اجتمع عشرة أطفال لتقسيم فريقين مباراة كرة القدم لهذا اليوم، بينما وقف في أحد أركان الملعب طفلٌ صغيرٌ يبدو عليه الوحدة والحزن، طفل عادي لا يميزه شيء ولا ينقص منه شيء، لا يتحدث إلى أحد، فقط قبع في مكانه يتأمل الآخرين وهم يلعبون ويضحكون غير مبالين لوجوده من الأساس. كثيرًا ما تساءل هذا الطفل عن سبب ابتعاد الجميع عنه، عن شعوره الدائم بأنه غير مرغوب في وجوده من الجميع، يتذكر كل المرات التي حاول فيها التقرب لزملائه ولكنهم دومًا كان ردهم يحرجه ويجرحه. وبينما هو غارق في تفكيره اقتربتْ منه مُدرستُه، نظرتْ إليه بحنانٍ وهي تسأله:

- مالك يا حبيبي؟ قاعد لوحدك ليه ومش بتلعب مع صحابك؟!

أجابها الطفل متلعثمًا في خجلٍ على استحياء:

- هما مش بيحبوني ألعب معاهم.

- لأ، تعالى أنا هخليهم يلعبوا معاك.



أمسكتْ بيد الطفل وأخذتْه إلى داخل الملعب حيث كان الأطفال قد بدأوا مباراتهم. توقفوا جميعًا عن الركض واللعب عندما اقترب منهم، تغيرتْ حتى ملامحهم عندما سألتْ المُدرسة سؤالها للجميع:

- سايبين صاحبكم لوحده ليه ومش بيلعب معاكم؟!

صمتَ الجميع للحظاتٍ احترامًا للمُعلّمة، ولكن قطع صمتَهم أحد الأطفال، والذي بدا أنه أكثرهم قوة وهيمنة عليهم، كان يُدعي (فكري):

- مش صاحبنا يا ميس.. إحنا بنخاف منه.

- عيب الكلام دا يا فكري! انتم كلكم أصحاب واخوات!

- والله يا ميس دا بيقعد يكلم نفسه.. غريب أوي!

- خليكم كويسين مع بعض قولت!

ابتسمتْ مرة أُخرى إلى الطفل وقالت:

- روح يا حبيبي اِلعب مع صحابك.

أمسك فكري بالكرة في يدِه وهَزَّ رأسَه للمُدرسة بالموافقة، فابتسمتْ لهم وتركتهم.

وفور أنْ غابتْ عن الأنظار، نظر فكري إلى الطفل الوحيد وألقى الكُرَةَ في وجهه، فسقط على الفور والدماء تنبثق من أنفه، ووقف جميعهم يسخرون منه وهو مُلقى على الأرض حزينًا، مختلطة دموعه بدمائه. حاول الطفل أن يقف ويُلملم ما تبقّى من



كرامتِه ويرحل، ولكن فكري لم يُمهله فرصة وركَله في معدتِه وهو ينظر إليه بكل تحفّظ وسخرية قائلًا:

- ابقى خلِّي العفاريت اللي بتقعد تتكلم معاهم ينفعوك.

***

في المساء، جلس الطفل في غرفتِه الصغيرة يبكي حزنًا على ألمِه ووحدتِه، يتساءل بينه وبين نفسه:

"ماذا لا يُحبه الأطفال الآخرون؟!".

هو ليس مخيفًا مثلًا أو غريب الأطوار، قد يكون هادئًا أكثر من اللازم، ولكن هذا لا يجعله غريب الأطوار.

قام من فراشِه بعدما فرغ من البكاء، وقف أمام المِرآة بغرفتِه يتأمل هذا الجرح بأنفِه والذي قال لأهله أنه بسبب تعثرِه على سلَّم المدرسة.

في أحد أطراف غرفته وقف شخصٌ يرتدي عباءة سوداء غطتْ كل جسده ووجهه، مُجرد توهج يشبه كُتل النار تتحرك مكان العين. لم يظهر على الطفل الاندهاش لوجود هذا الشخص، نظر إليه وأكمل تأمله لأنفِه. اقترب الشخص الملثَّم من الطفل حتى أصبح خلفه مباشرةً وبدأ التحدُث بصوتٍ أشبَه إلى الفحيح:

- ما تزعلش.. مش كل الناس هيحبوك.

- أنا مش عايز كل الناس تحبني، أنا بس عايزهم ما يضيقونيش!

- أوعدك إن دا مش هيحصل تاني.. أبدًا.



- يعني إيه؟!

- أُدخُل نام بس وارتاح وبكرة نبقى نتكلم في الموضوع دا.

ظلَّ هذا الكائن ثابتًا بجوار فراش الطفل حتى تأكَّد أنه غَطَّ في نومٍ عميق، وبعدها اختفى تمامًا من الغرفة.

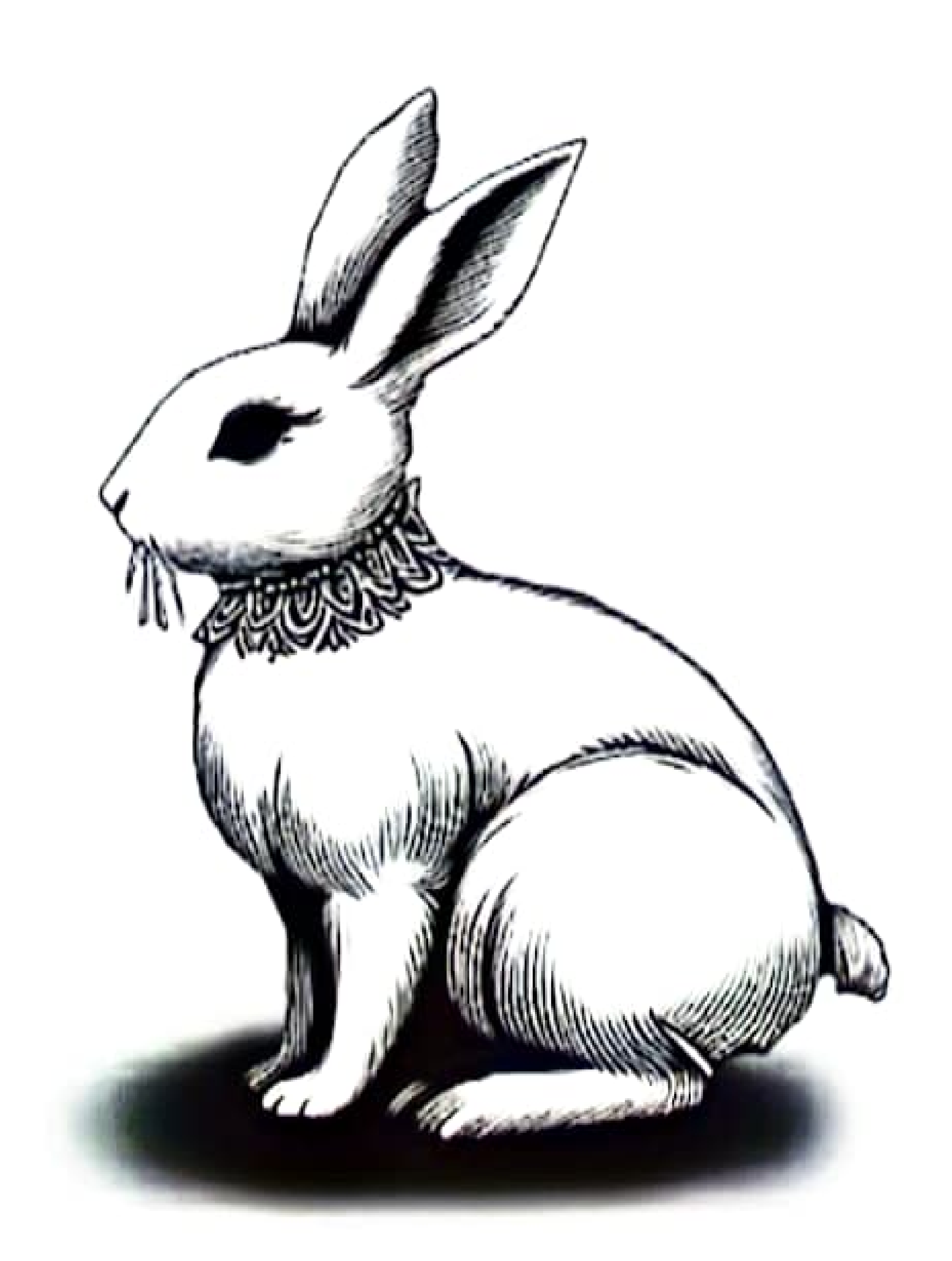
في صباح اليوم التالي، وقف مدير المدرسة والخوف يتملَّك من صوته وأنفاسه، ينعي وفاة 10 أطفال توفوا بالأمس في منازلهم، كل واحد منهم بطريقةٍ مختلفة. 10 أطفال كانوا يلعبون كرة القدم في المدرسة بالأمس، أحدهم وُجد محروقًا بالكامل في غرفته، وآخر وُجد مشنوقًا في شرفتِه، والثالث وجدتْه أُمّه مخنوقًا في دورة المياه وقد تحوّل لون وجهه إلى الأزرق، كل واحدٍ منهم مات بطريقةٍ مختلفة والشيء الوحيد المشترك بينهم هي نظرة الرعب التي اعتلتْ وجوههم عندما تم العثور عليهم.

وقف الطفل المُصاب في الطابور يستمع لما حدث لزملائه المتنمرين ومِن ثَمَّ نظر خلفه إلى شيءٍ لا يراه سواه، وقال له بصوتٍ خافتٍ أقرب إلى الفحيح:

- ما كانش لازم تموّتهم يا زيتون.. ما كانش لازم تموّتهم!

الفصل الأول

يونس يولد من جديد







أسوان – 2020.

أطلُ برأسي من الشرفة، السماء تبدو قريبة من الأرض اليوم، أشعر بأني إن بذلتُ بعض الجهد سوف ألمِس السحاب بيدي. أنظر إلى شمس المغرب بلونها الأحمر العنيد بينما هي تغوص في أحضان النيل في سعادة وتجلِّي، أرتشفُ بعض الشاي المطعَّم بالقُرنفل مستمتعًا بهذا المنظر الخلَّاب الخالي من الصَخَب، بينما جلس على مقربةٍ من البيت بعض الشباب يعزفون الربابة ويتغنّون ببعض الأغاني النوبية المُحبَّبة إلى القلب بصوتٍ عذب.

أعود إلى داخل المنزل بعدما ينتهون من غنائهم لأجد التلفاز يعرض فيلمًا جديدًا للفنان (حاتم نور)، أُمعِنُ النظر في ملامحه -والتي استطاعتْ بهذا الوجه البشوش أن تخدعني- ولكن، مَن مِنَّا لا يُمكن خداعه؟!

كل شيءٍ الآن تتخلَّله الفرحة ويفوق الكمال بمراحل كثيرة، الطفل الجبان الذي تعرض للتنمر كثيرًا في طفولته أصبح بعد خمسةٍ وعشرين عامًا من الواقعة شخصًا أكثر سعادة، أصبح يونس جديد، يونس الذي نسيَ مَن تنمَّر على جسده مثل (فكري) ونسيَ



مَن تمر على قلبِه مثل (حنين). ولكن، هل نسيتُها حقًا أم أنني أتصَنَّع النسيان كي أمضي إلى الأمام في حياتي؟!

في الواقع، أنا لا أريد أكثر من هذا، مِن الذي أعيشه الآن.

ستة أشهرٍ مرُّوا مرور السحاب في يومٍ مُلبَّدٍ بالهواء والأعاصير على موت حنين، الشعيرات البيضاء في رأسي زادتْ قليلًا، أصبحتُ أُفضِّل هَيئتي باللحية. قالت لي عصفورة أنها تُعطيني هيبة كِبار السِّن وجمال الشباب.

كنت قد فوضتُ (عم أباظة) في بيع كل ممتلكاتي بالقاهرة، سواء المنزل أو العيادة وحتى السيارة، تحدثتُ إلى أختي يارا ومريم ابنتها وأخبرتهما أنني قد سافرتُ إلى خارج مصر لمشروعٍ أقوم به، وأنني سأتصل بهما فور عودتي. قررتُ أن أقطع صِلتي بالماضي كُلّه؛ اشتريتُ منزلًا جميلًا في أسوان يطل على النيل، منزل تدخله الشمس طوال اليوم من جميع الاتجاهات، ألوانه وزخارفه يُشعرونك بالسعادة كأنك تحيا بداخل لوحةٍ فنية لرسامٍ نُوبيّ مُخضرم لم يعرف في حياتِه سوى الفن والبراح والسعادة، حتى أنني علقتُ (الدريم كاتشر) به لأتذكر الماضي الذي لا أريد له عودة.

- تفتكر البتاعة دي بتمنع الكوابيس فعلًا يا يونس!

- آهو يا ستي على الأقل تأجلها شوية حتى لو مش هتمنعها.

عُرِف عن أسوان قديمًا أنها (مدينة الإله خنوم)، والذى قيل عنه أنه يخلق البشر من خلال عجلته الخاصة بصناعة الفخار،



ويُشكِّل الأطفال الصغار من طَمي النيل المتوفر في أسوان ويضعهم بعد ذلك في أرحام أُمهاتهم، وكان يقضي معظم أوقاته بمنطقة الشلال بجوار معبد الفيلة. كل أساطير تلك المدينة كان مصدر إلهام إلى قلبي وروحي التي أدركتْ معني البراح بعد سنواتٍ طويلة من تلك الأصفاد التي حبستْني في أحراش الموت، تيقنتُ أنني لم أشعر بالسعادة من قبل في حياتي بدون عصفورة، كل ما يهمها ويشغل بالها هو سعادتي، أحيانًا تبقى صامتة لا تتحدث، أحيانًا تشرد بخيالها، وأحيانًا تكون ابتسامتها مصدر إلهامي وسعادتي، أقضي معها معظم أوقاتي وساعات يومي، نتقاسم السعادة والساعات. المهنة الوحيدة التي أقوم بها منذ أشهر هي مهنة الاسترخاء مع محاولات عديدة فاشلة للنسيان، نسيان الماضي، ونسيان الألم، ونسيان الحنين. أشعر ببعض الغرابة و التخبّط عندما أتذكر أن تلك المدينة شهدت بداية حياتي مع حنين في الماضي، ولكنني سرعان ما أتناسى هذا وأضع كل تفكيري وأحلامي في جعبة عصفورتي ذات الجناحين.

الصيد أصبح من عاداتي الجديدة، أجلس في إحدى البقع الجميلة بغرب سهيل، أحتسي بعض القهوة التي تعدها لي عصفورة في كوبٍ حراري، لا أكترث للسمك قدر اكتراثي للسلام في مجلسي، أرتدي الجلباب النوبيّ المريح، أُريح ظهري على صخرةٍ حنونة وأترك للسنارة باقي العمل، أجتلس الحصير وأبدأ في مراقبة المارة وأنا أقوم بهوايتي المفضلة على الإطلاق (تحليل الأشخاص من أشكالهم)؛ أتأمل وجوههم وحركاتهم وأبدأ في تخيّل قصة كل واحد منهم، أُحللهم في سِرِّي وأبني قصصًا

وروايات. هذا الرجل على سبيل المثال أعتقد أنه فقد شخصًا عزيزًا عليه منذ وقتٍ قريب، الحزن يبدو حتى على طريقتِه في السَّير. هذه السيدة على الأغلب تنتظر خبرًا مُهمًّا، يبدو عليها القلق ولكنه قلق لا يشوبه أي حُزن. أتأمَّل الناس لساعاتٍ وساعات، وفي الواقع أنا مَن يريد أن يتأملني!

تلك البقعة مِن النِّيل تُذكرني بكوبري (ستانلي) كثيرًا، البحر، الذكريات والأغاني التي أَتردَّد كثيرًا قبل الاستماع إليها. تلك البقعة تذكرني بـ (أنغام) وأغنياتها.

أغمضتُ عينيّ وتذكرتُ يومَ ذهبتُ أنا وحنين إلى الإسكندرية، جلسنا نحن الاثنين فوق حقيبة سيارتي نتأمل الغروب، تشاركنا سماعات هاتفها بينما نستمع إلى playlist كانت خليطًا من أغاني أنغام وموسيقي عمر خيرت، وما زال عقلي الباطن يُدندن تلك الألحان في أسى أحيانًا...

- انتَ بقيت بتسمع أنغام أكتر مني!

- أنا حبيتها عشان اِنتِ بتحبيها.

يوم الجمعة من كل أسبوع نقضي اليوم كله في بيت الجدة (ونجي)، الجدة ونجي هي آخر شخص على قيد الحياة من عائلة عصفورة، سيدة نوبية جميلة عمرها يقارب التسعين عامًا، ولكنها ورغم طعونها في العمر إلا أنها شديدة الذكاء والحكمة، صلبة كالجبال والجميع من أهل النوبة يذهبون إليها لحل مشاكلهم ومساعدتهم في شتى أنواع الأزمات.



اسم (ونجي) يعني (النجمة) باللغة النوبية، وبالفعل هي كانت نجمة ساطعة في سماء غرب سهيل، لم أذهب يومًا إلى منزلها إلّا وأجد العشرات من الضيوف لديها يستشيرونها في مشاكلهم وأمور حياتهم، أو حتى يتناولون الطعام في بيتها الفسيح. لديها الكثير من التماسيح، يعيشون في منزلها كما يعيش الكلاب والقطط في منازلنا، لكل تمساح منهم اسم وشخصية خاصة به، فقط ونجي من تستطيع التعامل معهم، بل وفي بعض الأحيان تستطيع التحدث مع هؤلاء التماسيح!

أُحبها وأحترم حكمتها رغم كونها لا تقرأ أو تكتب، ولكن خبرتها الحياتية فاقتْ الكثير من العلماء والفلاسفة.

- صباح الفل يا جدة ونجي!

قلتُها بعدما قبلتُ يدها. لم أكن من الأشخاص الذين يُقبِّلون أيدي أي أحد ولا حتى أهلي في الماضي، ولكنني أحببتُها بصدق، أحببتُها كأُمٍ لم أعرف حنانها من قبل.

- إزيَّك يا يونس يا حبيبي؟ حزَّر فزَّر النهاردا طبخالكم إيه!

أجبتُها وأنا أُمازحها ضاحكًا:

- إوعي تكوني شَويتِ تمساح من تماسيحِك!

أمسكتْ بواحدٍ من تماسيحها وقرَّبتْه إلى صدرها كَمَن يحمل قطة وقالت بِانفعالٍ لا يخلو من المزاح:

- لا، كله إلّا تماسيحي. أنا عاملالَك (ويكا نوبي) تاكل صوابعك وراها، وبعدها شوية كركدية متلّجين.. حاجة آخر دلع.

- والله يا جدة اللي بتعمليه معايا دا كبير أوي.. ربنا ما يحرمني منك!

- أنا حبيتك الأول عشان عصفورة بتحبك، بس دلوقتي بحبك كأنك ابني تمام.

كان يومًا جميلًا حقًا، اليوم معها مليء بالسعادة والحب الذي طالما افتقدتُه في حياتي لسنوات، أَنظر حولي فلا أرى غير الحب، الجدة بحكمتِها وطِيبة قلبها، وعصفورة ببراءتها وبساطتها، ومعارف وأصدقاء الجدة الذين لا تعرف قلوبهم سوى الحب، يومًا أصطاد لهم بعض السمك، ويومًا يعدُّون لي زجاجةً من عصير القصب الذي أُحبه، أُناس بُسطاء لا يحملون في طيّات روحهم سوى الحب، ولا شيء آخر.

في أعوامي السابقة، نزعت الحياة مني فيشة السعادة، انقطع عني كل ما قد يجعلني سعيدًا، انقطع عني كل ما قد يجعلني إنسانًا، ظننتُ يومًا أن السعادة تجسدَتْ في (حنين)، وكم كنتُ مُخطئًا غبيًا في ذاك الوقت.

الكثير من الناس أكبر أحلامهم فتاة رائعة الجمال تشاركهم حياتهم والكثير الكثير من الأموال أو السُلطة، وأنا قد رأيتُ وتمنيتُ تلك الحياة في يومٍ من الأيام؛ تجرعتُها حتى فقدتُ غريزة العطَش، اِلتهمتُها حتى ما عدتُ قادرًا على تناول الطعام مرة أخرى. تلك الحياة التي تحلمون بها لاشيء بها.. لا شيء على الإطلاق!

الأيام تمر والأسابيع، وقد أقسمتُ لعصفورة أني لن أعود إلى بحور الماضي مرةً أُخرى، أقسمتُ أن أعيش معها حياةً طبيعية، أقسمتُ كثيرًا حتى ما عدتُ أُصدِّق نفسي، ولكنني يجب أن أُحافظ على هذا القسم.

طالما أقسمتُ كثيرًا في الماضي وكانت النتيجة غير مُرضيَة لي على الإطلاق. في الماضي أقسمتُ أن أُصبح طائرًا فسقطتُ، أقسمتُ على أن أكون مُحاربًا لخسرتُ، أقسمتُ على أن أُصبح وحشًا أُسطوريًا أنفث النيران وأحرق كل شيء فأحرقتُ نفسي بنفسي، حتى حينما أقسمتُ على أن أُصبح دودة قز تتشرنَق لتُصبح فراشة، حطمني الناس قبل أن تخرج لي الأجنحة وأطير بعيدًا عنهم.

الجدة (ونجي) كانت تفهمني، تشعر بحزني إذا تذكرتُ أحداث الماضي التي حكيتُها كلها لها بلا تردد، تشعر بكل ما يدور في عقلي وقلبي، تشعر بكل شيء؛ الألم، الخوف، الغضب وحتى اللا منطق الذي أعيشه، ترى بداخلي ما لا أراه في نفسي من شغف، قوة، طيبة وصفاء.

ذات مساء، جاءتْ مُتكئة على عصاها العجوز، جلستْ إلى جانبي وقالت في حنان:

- يونس!

- تحت أمرك يا جدة ونجي! محتاجة أي حاجة؟!

أمسكتْ بيدي وقالت:

- فلتل ملي نوبري من.

لم أفهم ما قالته، مطيتُ شفتيّ فابتسمتْ وتذكرتْ أنني لا أتحدّث اللغة النوبية.

- يعني مش كل اللي بيلمع دهب يا يونس، وإنتَ مش مُغفَّل ولا عبيط عشان تمشي ورا حاجة لمعتها كدابة. مش عايزاك تمشي ورا وهم وتندم على صفحة اتفتحت تاني بعد ما قفلتها.

- ما تخافيش عليا. صدقيني ساعات بنمشي ورا الحاجات وإحنا عارفين إنها مش دهب، بس بنمشي وراها عشان نرتاح في الآخر.

كل شيء في حياتنا كان جميلًا لا يشوبه حزن، حتى زيتون توقف عن الظهور منذ تزوجتُ بعصفورة، ومع مرور الوقت في حياة الناس ينسون، أو يتناسون، ولكنني لم أنسَ!

لم أنسَ مجلسي في تلك الغرفة المخيفة لشهور، لم أنسَ جلسات الكهرباء وأشكال التعذيب التي رأيتُها، لم أنسَ تلك الأصوات إن كانت لأطفالٍ خياليين كانوا أو حقيقيين أو عَجَزة ينوحون كالفئران في المصيدة يتعذبون ويتألمون، لم أنسَ هذا الطبيب الذي كان يتلذّذ لرؤيتي أتألم وأتعذَّب، لم أنسَ آخر مرة زارني فيها زيتون، كان في تلك الليلة التي قتلت بها حنين، ظل يُشجعني ويدفعني لأُقدم على فعلتي، ظل معي حتى خرجتُ من المصحة، ظل معي حتى استقلّيتُ القطار، وفي اللحظة التي شعر فيها زيتون أنني عبرتُ إلى بر الأمان اختفى ولم يعد من وقتها، أما أنا لم أنسَ أنّه وجب عليَّ الانتقام، وأن السعادة التي أعيش فيها الآن ليستْ إلا فترة وسأعود مرة أخرى إلى كوابيسي، وأني شئتُ أم أبيتُ

سيعود إلى حياتي هؤلاء المقنعون ذوي وجوه الأرانب.

منذ أيام أو ربما أسبوع وأنا يراودني نفس الكابوس يوميًا في نومي؛ تستيقظ فتاة عشرينية في منتصف الليل مذعورة وخائفة من شيءٍ ما، تتحرك مثل المجاذيب وتتجه لا إراديًا نحو سلّم عتيق، تصعد درجاته بسرعة يشوبها الخوف، ويتصاعد من أخشاب السلّم صريرٌ مُزعج لا يكترث له أحد، في الأغلب صرير أرواحهم المظلمة يعلو كل شيء!

لم تتوقف قدميها عن الحركة حتى وصلتْ إلى سطح المبنى، نظرتْ إلى أسفل في حزن، نظرتْ إلى الموت الذي رأتْه يبتسم لها في رضا، وبينما دقتْ الساعة العتيقة مُعلنة انتصاف الليل، أغمضتْ عينيها وألقتْ بنفسها بلا تلجلجٍ ولا ارتباك لتسقطت جُثَّةً هامدة تسيل من جسدها الدماء بلا رحمة.

أرى نفسي في الحلم أقترب من جثتِها، أجثي على ركبتيّ إلى جانبها، تقترب يدي من وجهها، أتفقدها فتفتح هي عينيها على مصراعيهما وتقول: "اِلحقني يا يونس!".

في نفس اللحظة أستيقظُ أنا من نومي مفزوعًا والعرق ينهمر مني، أبحث في الظلام عن مفتاح الأباجورة لأقوم وأتناول بعض الماء، أشعر بيد عصفورة من خلفي تمسك بي وتُهدئني في حنان:

- يونس! مالك يا حبيبي؟!

- مافيش حاجة.. كملي نوم يا عصفورة.. أنا تمام.

- نفس الحلم برضه؟ البنت اللي بتنتحر!



- مش حاسس إنه مجرد حلم، حاسس إني شوفتها قبل كدا بس مش قادر أحدد فين ولا إمتى!

- نام وارتاح وبكرة اِبقى فكَّر على مهلك.

- حاضر. تصبحي على خير حبيبتي.

أيام وأسابيع تمُر وأنا تائهٌ في أفكاري، أُفكِّر في الخطوة القادمة، أُفكِّر في خطة عودتي إلى المصحة؛ الطبيب يشغلني، فتاة الحلم تشغلني، أشعر بأشياءٍ تجذبني إلى هذا المكان ولا أعرف تحديدًا ما هي!

أثناء هروبي وتحرري من حبستي، لم أنسَ أن أتذكَّر جيدًا مكان المصحة، رغم الإعياء والصدمة إلا أنني قد أرسم خريطة ذهاب وعودة لهذا المكان اللعين، وقد فعلتُ، في الفص الصَّدغي من المخ، أو ربما يكون زيتون هو مَن فعل هذا!

ربما تكون المشكلة ليستْ في رغبة الانتقام، قد تكون بسبب الملل، بسبب جلوسي في هذا الهدوء الذي لم أعتَد عليه أبدًا في حياتي، حياتي التي طالما كانت مليئة بالمغامرات من بدايتي كضابط وحتى أصبحتُ طبيبًا نفسيّ.

في صباح أحد الأيام، وبينما أنا جالسٌ أمام النيل أحتسي بعض الشاي، اقتربتْ مني عصفورة والسعادة مرسومة على وجهها المشرق، قبَّلتْني وجلستْ إلى جانبي وقالت:

- عندي ليك مفاجأة!

نظرتُ إليها بنفس النظرة المملولة التي تُسيطر على وجهي، أُحاول

أن أصطنع الاهتمام قائلًا بربع ابتسامة:

- خير؟!

لم يظهر عليها تأثرًا بروحي الباهتة وقالت بنفس الحماس والسعادة التي طالما تميزتْ بهما:

- لا، مش هينفع أقولك.. قوم تعالى معايا أوَريك!

استقلّينا سيارة أُجرة إلى شارعٍ قريبٍ من سوق أسوان، مشينا في شارعٍ شديد الجمال مليء بالبزارات والمحلات السياحية. تبعتُها كالمجذوب حتى دخلنا إلى إحدى البنايات الراقية، صعدتُ خلفها إلى الدور الثاني وأنا ما زلتُ لا أفهم أي شيء، حتى استقرتْ عينيّ على لافتة جميلة كُتبتْ بخط اليد أمام إحدى الشقق مكتوب عليها:

"دكتور يونس ليل - طبيب نفسي".

- إيه دا؟ أنا مش فاهم حاجة!

- فاكر الفلوس اللي طلبتها منك من فترة وقولتلك هنزل السوق أشتري لبس؟ بصراحة أخدتهم منك عشان أدفعهم لصاحب العمارة اللي هتبقى فيها عيادتك الجديدة كمُقدم إيجار. مبروك عليك يا حبيبي!

اندهشتُ قليلًا لطريقة تفكيرها والتي لم تكن متوقعة من شخصٍ بسيطٍ مثل عصفورة، وأجبتُها وأنا ما زلتُ غير مستوعبٍ تمامًا:

- ما كانش لازم تتعبي نفسك يا عصفورة! وبعدين مين قالك



إنّي كنت عايز أرجع تاني أشتغل في الطب النفسي؟

ابتسمتْ لي في حنانْ وقالت وهي تُمسك بيدي:

- يونس، أنا عارفة إنك زهقان، ودا طبيعي.. وعارفة كمان إنك بتحب شغلك جدًا. اعتبرها بداية جديدة.. أنا عارفة إنك قدها، ولو ما ارتحتش نقفل العيادة، إحنا مش ناقصنا فلوس..

في الواقع، عملي كطبيبٍ نفسيّ يجذبني مثل النداهة، اشتقتُ إلى القصص والمرضى، اشتقتُ إلى كوني أنا رغم كل شيء. الأزمة ليستْ في كوني شخصًا **expired** بل في كوني على رفِّ الصالحين، أخاف أن أُفسدهم، أخاف أن أُوذيهم، أخاف أن يراهم الناس معي فيظنوهم مثلي، أرى نفسي وباء لا علاج له، مرض لم يُخلَق له ترياق على وجه الأرض، وأشد أنواع الأمراض هي التي لا نراها بالعين المجردة، الأمراض التي ليس لها رائحة ولا سابق إنذار قبل أن تفتك بالمريض. أرى دومًا نفسي العدو الأكبر لي، أنا مَن سمحتُ لمَن لا يستحق بأن يسكن قلبي، أنا من عشتُ كفيفًا وأنا أرى، أنا مَن عاشَ في ألمٍ متجددٍ من الغرقِ بينما اليابسة على بُعد خطواتٍ مِنّي.

بدأتُ في تجهيز العيادة بحماسٍ لم أعهده من نفسي، قررتُ هذه المرة أن أشتري (شيزلونج) كنوعٍ من التغيير، حاولتُ أن أبتعد عن لوحات (فان جوخ) ولكنني وجدتُ نفسي -لا إراديًا- أشتري لوحات لرسوماته، وفوق مكتبي بالعيادة استقرتْ لوحة (ليلة النجوم) لفينسنت. كثيرًا ما توقفتُ أمام تلك اللوحة محاولًا أن أفهمها وأن أفهم ما وراءها؛ اللوحة بها حركة كبيرة وسكون

في نفس الوقت، حركة ضربات فرشَتِه الدائرية والحلزونية وسكون المدينة بخطوطها الحادة وأنوارها البسيطة، وكأن آكِلوا البطاطا في بيتٍ من البيوت، أيضًا الألوان لها دور في التناقض، مثلًا ألوان السماء المضيئة وألوان المدينة القاتمة، الرابط بين السماء والأرض (شجرة السرو) بخطها الرأسي وضربتها المُنحنية، شجرة السرو بالنسبة لي هي رمز للموت، وفان جوخ كان يرى أن الموت هو القطار للوصول إلى النجوم المضيئة، وهذا من أسباب اعتبار الأطباء بمثابة رسائل انتحار.

كم أكرَه تحليلي لكل شيء!

أحيانًا أرى نفسي أُشبِه لوحة ليلة النجوم، وأحيانًا أخرى أرى نفسي معاناة فينسنت وألمه.

أسبوعان وكانت العيادة مستعدة لاستقبال الحالات. في يوم الافتتاح حضرت الجدة ونجي و قرأت بعض آيات القرآن لتبارك المكان، وفي السابعة مساءً دلفَ إلى العيادة ثلاثة وجوه كنتُ بالفعل أشتاق إليهم، (تيا) صديقة (مريم)، ومريم ابنة أختي، وأخيرًا أختي الكبيرة يارا.

تيا بدتْ أكثر إشراقًا وسعادة، الانتقام يُريح في بعض الحالات. مريم كما هي بسيطة وهادئة، ويارا بدا عليها عدم الارتياح رغم نظرة الاشتياق في عيونها. يارا تشبهني كثيرًا، أقصر بعض الشيء، تميل إلى الطابع الكلاسيكي في ملابسها، شعرها قصير، عيونها حادة رغم كونها شديدة الطيبة إلا أنها تعطي الناس انطباعًا أوليًا بغير ذلك.

- كنت حاسس إنكم مش جايين!

- والله تصرفاتك دي هتموتني في يوم يا يونس.

- ليه بس يا حبيبتي؟!

قلتُها بشيءٍ من السُخرية، أعلم أن يارا تعاني من تصرفاتي منذ نعومة أظافري.

- ليه بس يا حبيبتي!

- قالتْها مُقلدة صوتي..

- تختفي شهور وماعرفش حاجة عنك من ساعة مشروع التخرج بتاع مريم وتيا، وبعدها تكلمني تقولي أنا سيبت حنين، وبعدها أنا اتجوزت وعايش دلوقتي في أسوان؟ هو انت مش ليك أهل بيخافوا عليك؟!

- معلش يا حبيبتي، من إمتى يعني وأنا تصرفاتي طبيعية؟! تعالي أعرفك على عصفورة... عصفورة، دي يارا أختي..

كان يومًا هادئًا، تعارف الجميع وقد ارتاح قلبي لما تحسَّستُه من قبول وتفَهم بين يارا وعصفورة، إلّا أنني رأيتُ شيئًا من عدم الارتياح في عيون أختي. يارا هي من ربّتني بعد وفاة والدينا، هي مَن اهتمتْ بي وعلّمتْني كل شيء، أدين لها بكل شيء.

أتذكَّر يوم وفاة والدتنا، كنتُ تقريبًا في السادسة عشر من عمري، يومها احتضنتْني يارا -والتي كانت وقتها تبلغ من العمر الثالثة والعشرين عامًا- ونمتُ بين ذراعيها كطفلٍ رضيع؛ هي



أمانيَّ ودُنيتي مهما بعدتُ عنها واختفيتُ لفتراتٍ طويلة.

سألتْني عن حنين وأخبرتُها أنها طلبتْ الطلاق وذهبت إلى حال سبيلها. في الواقع هي تحمل في جعبتِها الكثير والكثير من الأسئلة التي تريد طرحها عليَّ، ولكنها في الأغلب تُشفِق عليَّ ولا تريد أن تكسر فرحتي بحياتي الجديدة والربيع الذي زار حياتي أخيرًا بعد ليالِ الشتاء الطويلة.

تمسَّكتْ عصفورة ببقاء يارا ومريم وتيا في منزلنا لعدة أيام على سبيل الضيافة. أخبرتْهم عصفورة بأنها ستكون مرشدتهم السياحية في النوبة وأسوان، وكان هذا تقريبًا هو الأسبوع الأفضل في حياتي على الإطلاق وأكثرهم سعادة؛ عصفورتي وأختي والفتيات وبالطبع الجدة ونجي والتي عشقتْها يارا من أول لحظة، ومابين غرب سهيل حيث يقع منزلنا مرورًا بجزيرة هيسا وحتى جزيرة فيلة كان الجميع في أشد فرحتهم بجمال بلاد الذهب التي لم أرَ يومًا أجمل ولا أنقى منها.

ولكن لماذا عُمر السعادة قصير؟!

مَرَّ الأسبوع سريعًا، ووعدتُ يارا أنني سأزورها في القاهرة قريبًا، ووعدتْني مريم وتيا بتكرار الزيارة لأسوان قريبًا.

- خلي بالك على نفسك يا يونس.. عشان خاطري!

- ما تخافيش على أخوكِ.

- عايزة أبقى متطمنة عليك، وبطَّل تختفي كل شوية، إنتَ مش عايش في الدنيا لوحدك!

- حاضر والله يا يارا. ربنا يخليكِ ليا يا أغلى أُخت في الدنيا.

مَرَّ أسبوع اللهو والسعادة وبدأ العمل، أذهب إلى العيادة يوميًا من الساعة الرابعة وحتى العاشرة من كل يوم، الأيام تمُر ولا يدُق بابي أحد. وكيف لشعبٍ يعيش في هذا النقاء وهذه السعادة أن يُصاب بأي مرضٍ نفسيّ؟!

أيامٌ تمُر مرور الكِرام وكابوس الفتاة يتكرر في الصحو والنوم. وفي مساء أحد الأيام، وبينما أنا جالس في العيادة أُتابع المارَّة من النافذة، وجدتُ شخصًا ما يدق الباب بشكلٍ عجيب، قمتُ من مكاني مُسرعًا، فتحتُ الباب لأجد فتاة تتصبَّبُ عرقًا، ملابسها مُتَّسِخة، آثار الكدمات تحتَّل جسدها بالكامل.

نظرتُ إليها في ذُعرٍ وهَلَع، نطقتْ بصعوبةٍ شديدة حروف اسمي:

"يو... نس".

بعدها فقدتْ الوَعي بين ذراعيّ وأنا لا زلتُ في حالة عدم إدراكٍ لما يحدث.

حملتُها بين يديّ، وضعتُها على الشيزلونج لتنام، وأخرجتُ حقيبة الإسعافات الأولية، حمدتُ الله أن جروحها كلها بسيطة وسطحية. تركتُها لتنام بعدما تأكدتُ أنها بخير وجلستُ على الكرسيّ المُقابل لها أنتظر إفاقتها لأفهم ماذا يحدث.

ساعات مَرُّوا كالسنوات في انتظارها أن تعود إلى وعيها، ومع انتصاف الليل فتحتْ أعيُنها تجول بنظرها في أرجاء الغرفة، عدلتْ



من جلستها بصعوبة وطلبتْ بعض الماء، شربتْ ثم ابتسمت قائلة:

- ياسمين.. ياسمين عايشة يا يونس!

ياسمين! ولكن كيف؟ كيف تكون على قيد الحياة؟!

رأيتها تقع في البئر، رأيتها وهي تتحول إلى زهرة ياسمين جافة في طيات أوجاعي!

- ياسمين مين اللي عايشة؟!

قُلتُها وأنا أرتجف خوفًا من ردها.

- ياسمين يا يونس.. ياسمين مراتك!

جربتُ جميع أنواع الصدمات والأوجاع في حياتي، ولكن هذا النوع جديد، هذا النوع حصري في وجعِه وتأثيره.

- ياسمين!

أغمضتُ عينيّ وتذكرتُ هذا اليوم، يوم اشتريتُ لها المزرعة...

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي.

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟!

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وإنتِ من زمان، وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض.

قلتُ جُملتي الأخيرة وأنا أبتسم لها ثم أكملتُ في مساري لعدة

كيلو مترات على طريق القاهرة-الإسكندرية الصحرواي، بعدها انحرفتُ في طريقٍ صغير غير مُمَهَّد وتوقفتُ بالسيارة أمام إحدى المزارع وطلبتُ من ياسمين أن تُغمض عينيها:

- غمضي عيونِك!

- إوعى تكون خاطفني!

ضحكتُ وأنا أُساعدها على إغلاق عيونها وقلتُ:

- لا يا ستي مش خاطفِك ولا حاجة، يلا تعالي معايا واحدة واحدة..

أبعدتُ يدي عن عينيها بعدما مشينا عدة خطوات وأخبرتُها أن تفتح عينيها، كنا أمام مزرعة شديدة الجمال، تتوسطها (فيلا) من دورين لونها زهري ويُحيطها سورٌ بُنيّ جميل، أمام الفيلا بحيرة صغيرة يعوم بها بعض البط والإوَز، وإلى جانب البحيرة بئر ماء شديد الجمال يجلس أمامه كلب (لبرادور) بني اللون يتثائب، وفي إحدى أركان المزرعة كان هناك بيتًا صغيرًا يمتلئ بالدجاج وآخر بالأرانب، بالإضافة إلى إسطبل صغير جلس بداخله فرسٌ صغير وحمارٌ أبيض اللون يأكلان سويًا في هدوء، ورغم جمال المكان بأكمله إلا أن جمال ابتسامة ياسمين في تلك اللحظة فاق كل شيء، نظرتْ إليَّ في فرحةٍ ولهفة وقليلٍ من التردد وسألتْ:

- يونس.. إيه المكان الحلو أوي دا؟!

أخرجتُ من جيبي مفتاحًا ووضعتُه في راحة يدها وقلتُ مبتسمًا:



- المكان الحلو أوي دا يبقي بيتنا يا حبيبتي، تحبي ندخل أفرجك على الفيلا؟

- إمتى وإزاي؟! يونس.. دا بجد؟!

- طبعًا بجد، عشان تعرفي بس أنا بحبك قد إيه.

أحاطتْني بذراعيها الصغيرتين واجهشَّتْ في البكاء، لم ولن أنسى تلك اللحظة طوال حياتي.

أفقتُ على صوت تلك الفتاة وهي تنظر إليَّ:

- أستاذ يونس! اِنتَ كويس؟

- أنا عايز أفهم كل حاجة.. وخلينا نبدأ بإني أعرف اِنتِ مين قبل أي حاجة!

- أنا اِسمي لؤلؤ، كنت مع ياسمين في المصحة، اتقابلنا هناك من سنة، كانت دايمًا بتحكي عنك وعن حبها ليك وعن المزرعة.

قمتُ من مكاني أبحث في الأدراج عن دوائي، أخاف أن أكون متوَّهمًا، أخاف أن أكون قد عدتُ إلى الهلوسة مرة أخرى، أبحث كالمجنون ولا أستطيع أن أستشِفَّ مكان الدواء. تنظر إليَّ لؤلؤ باستغراب، هذا إن كانت موجودة من الأساس معي بالغرفة..

- أستاذ يونس..!

- أنا كويس.. كويس.. كملي بعد إذنك!



- عمري ما فهمت هي موجودة ليه في المصحة، عمري ما فهمت مين دخَّلها المصحة، هي الوحيدة اللي كانت بتجبني هناك وهي اللي ساعدتْني إن حالتي تتحسّن وأخرج، بقالي شهر خارجة من المصحة ومن ساعتها وأنا بدور عليك..

- المصحة دي فين يا لؤلؤ؟!

تتحدث هي وأنا لا أسمع جيدًا، تشويشٌ أصاب عقلي من الصدمة، أتحرك في الغرفة كالمجنون، تتحدث هي ولا أسمع سوى الهمهمات، أنظر إلى زجاج شباكي فأرى انعكاس صورتي وخلفي يقف هو بعباءتِه السوداء، يهمس في أذني:

- هتروح تدوّر ورا وهم يا يونس؟

- انت إيه اللي جابك دلوقتي؟!

- هتسيب عصفورة؟ بعد كل اللي عملته عشانك؟

- اطلع مني يا زيتون!

- أنا مش جواك عشان أطلع منك يا يونس.. أنا حواليك.. أنا في كل مكان..

وقبل أن أُحطّم الزجاج بيدي تذكرتُ أنّها جالسة، هدأتُ قليلًا ونظرتُ إليها، لا يبدو عليها الاستغراب مما رأته، مَن يسكن المصحات النفسية يعتاد على أي شيء، وعمومًا هي كل ما رأتْه هو شخص يتحدث إلى نفسه ليس أكثر.

- متأسف، تقدري تقوليلي إزاي ألاقي ياسمين؟ وقبل كل دا،



إيه اللي يثبتلي إنك مش كدابة؟

في الأغلب كانت تتوقع سؤالي لها، فتحتْ حقيبة يدها وأخرجتْ منها سلسلة ذهبية، نقش على دلايتها حرف الياء!

أتذكّر تلك السلسلة جيدًا، تلك التي أهديتُها إلى ياسمين في يومٍ من الأيام...

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي!

- وانتَ طيب يا حبيبي.. بس بمناسبة إيه؟!

- مِن غير أي مناسبة، بس بقالي فترة عايز أجيبلك هدية.. يا رب تعجبك!

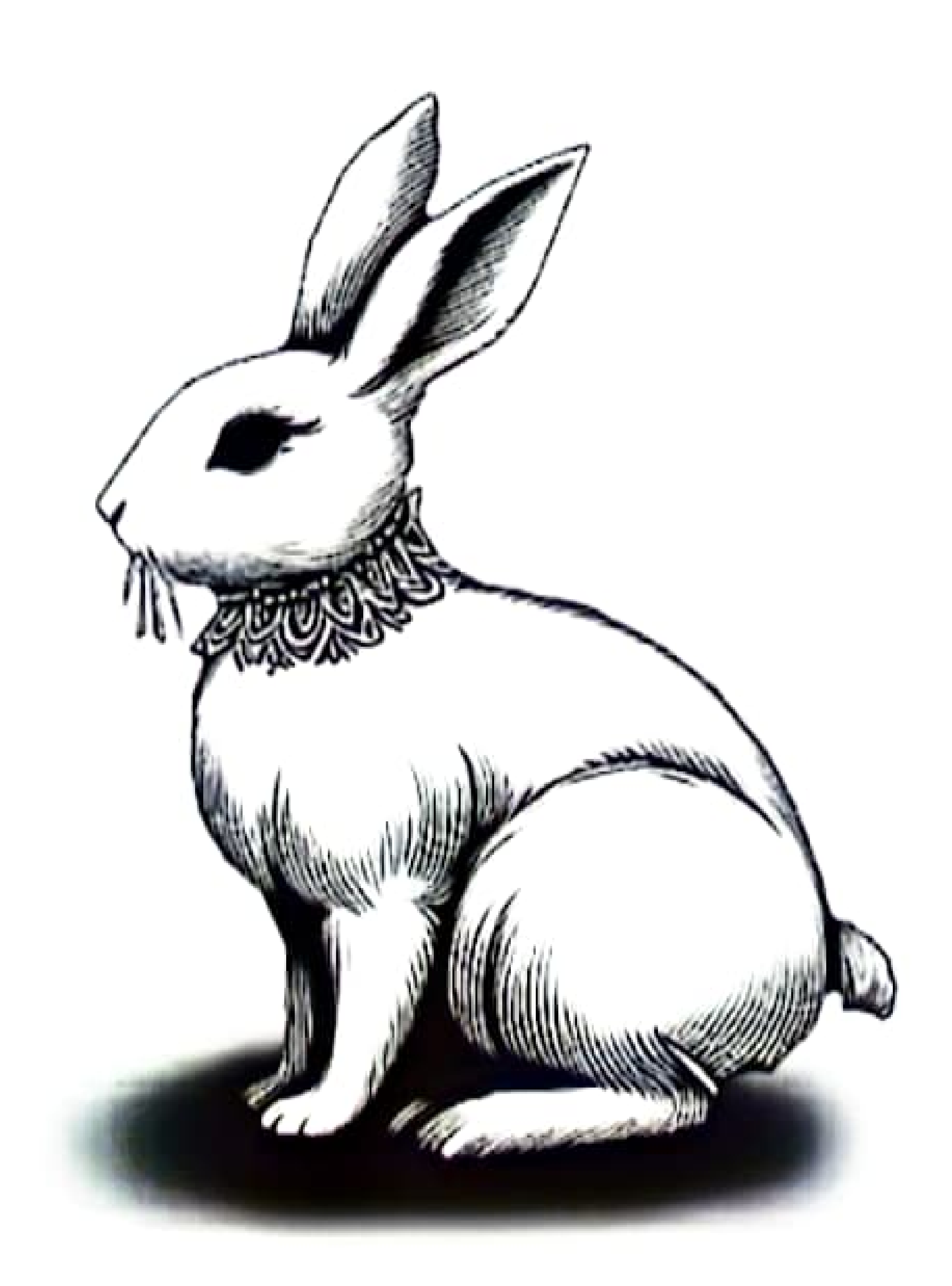
ما أن رأتْ السلسة حتى تهللتْ أساريرها واحتضنتْني مثل الأطفال كعادتها.

- حلوة أوي يا حبيبي، بس اشمعني جايبها عليها حرف اسمك وأنا لأ؟

- انتِ عبيطة يا ياسمين؟ دا على أساس إن اسمك جولفدان!

الفصل الثاني

ضبع وأرنب





أمسكتُ بالسلسة في قبضة يدي اليمني وبيدي الأُخرى أمسكتُ بذراع لؤلؤ حتى أوشكتُ أن أكسرها في يدي، صرختُ بها قائلًا:

- انتِ جبتِ السلسلة دي منين؟ اتكلمي بدل ما تموتي في إيدي!

- يا يونس أنا جاية أساعدك! سيبني وهحكيلك كل حاجة.. أرجوك!

تركتُها وعدتُ إلى مقعدي مرة أُخرى، فتحتُ خزانة مكتبي، أُفتِّش عن دوائي مثل المجذوب، ثوانٍ حتى عثرتُ عليه أخيرًا، (أريبيبرازول).. ألقيتُ بقُرصين منه في فمي وتجرعتُ بعض الماء.

- حضرتك كويس؟ إيه الدوا دا؟

- ماتخافيش.. دا (أريبيبرازول)، مضاد للذهان، بقالي فترة مش متأكد من حاجات كتير بتحصل في حياتي فباخد الدوا دا عشان أتأكد إني واقف على الأرض.

- أنا مش جاية هنا عشان أخدعك.. والله ياسمين عايشة.

نظرت إليَّ نظرة لم أفهمها، لا أعرف إن كانت نظرة شفقة أم حذر، ولكنها أخرجتْ من حقيبتها ورقة مطوية وناولتْني إياها..

- دا عنوان المصحة. ممكن أشرب؟

أخذتُ منها الورقة، وضعتُها في جيبي وقمتُ لأُحضر لها بعض الماء، وعند عودتي كانت قد تركتْ العيادة ورحلتْ.



أخرجتُ الورقة من جيبي فقط لأتأكد من أنها كانت موجودة هنا حقًا وأني لم أكن أهذي أو أتخيل وجودها، وبالفعل، وجدت الورقة والسلسلة، فأخرجتُ ورقة من دفتري و كتبتُ:

عزيزي ثيو،

الراحة لم تُخلَق لأمثالي، أنا لم أسعَ يومًا وراء المتاعِب.. صدّقني.

فينسنت.

في المساء، عدتُ إلى المنزل حيث كانت عصفورة تنتظرني لنتناول الطعام سويًا. تتفنَّن هي في إسعادي، ولا أُريد أن أجرحها، لا أريد أن يُصيبها مكروه من عبثي وظلامي، أعلم شديد العلم أن قبل وجودها كنتُ مثل البيت المهجور، وبوجودها دبّتْ الحياة في أوصال أيامي الذابلة، لا أعرف حقًا من أقوى، الثلج أم النار، ولكن ورغم عدم إدراكي إلا أنني أتحاشى إخماد نيران حبها لي بثلجي القاتل.

- أنا مش عايزك تزعلي مني لأي سبب.

- عمري ما بزعل منك. ليه بتقول كدا بس؟!

- بقول كدا عشان ما حدِّش يعرف أنا عديت بإيه عشان أبقى الشخص اللي أنا عليه دلوقتي.

- يونس.. إنت إديتني حياة عمري ما كنت أحلم بيها، أنا هفضل طول عمري بحمد ربنا على وجودك، عصفورة البنت الغلبانة اللي عايشة مع أمها في قرية السماحة، اللي أبوها قُرداتي على قد حاله، انت بنفسك تفكر فيها وتحبها!



- إيه اللي انتِ بتقوليه دا يا عصفورة؟! أنا اللي مفروض أقولك شكرًا على إنك مستحملاني، مستحملة كوابيسي وإني بصحيكِ كل يوم في وسط الليل على صريخي، مستحملة واحد هو نفسه مش مستحمل نفسه. إنتِ جيتي بجناحاتك ولحقتيني قبل ما أغرق. عارفة.. يوم ما خرجت من المصحة لقيت نفسي بجري في الشوارع زي المجانين، ما فكَّرتش في أي معارف عندي ولا حتى أختي الوحيدة، صورتك كانت قدامي ومش بتغيب عني، لما رميت نفسي جوا القطر اللي رايح أسوان كنت بحسب الدقايق جوا عقلي لحد ما وصلت ليكِ.

احتضنتُها حتى أصبحنا جسدًا واحدًا، تلامسنا، تناولتُ شفتيها كَمَن يتذوَّق الفاكهة للمرة الأولى في حياته، يتذوقها بنَهَمٍ وفضول. جلسنا سويًا نتحدث عن كل شيء، أخرجتُ لها من حقيبتي السلسلة وحكيتُ لها عن ما دار بيني وبين لؤلؤ في العيادة، حكيتُ وانتظرتُ منها ردًا أو إشارة. في نهاية حديثي ابتسمتْ لي وهي تُداعب ذقني والدموع تبلل عيونها السمراء وقالت:

- عايز تسيبني؟

- عمري ما هعمل كدا.

- أنا مش عارفة المفروض أقولك إيه!

ابتسمتُ لها والدموع في عيني:

- أنا محتاجك انتِ اللي تقوليلي المفروض أعمل إيه!

تنهدتْ عصفورة وقالت:

- لو كنت أنا اللي محبوسة في مصحة، أو حتى عندك شك إني ممكن أكون عايشة ما كُنتش هتسيبني وكنت هتفضل تدوّر عليا. روح يا يونس، روح يا حبيبي دوّر على مراتك.. ماتخافش عليا أنا هبقى كويسة، الجدة وِنجي موجودة والمعارف هياخدوا بالهم مننا لحد ما ترجع..

- مننا؟! عصفورة.. انتِ..؟!

- حامل، في الشهر التالت.. كلها شهور وابنك أو بنتك هينوّروا الدنيا. خلي بالك من نفسك يا يونس، أيًا كان اللي ناوي تعمله، اعمله وانت واخد بالك على نفسك.

- أنا مش عايز أبقى رايح للمجهول وأنا سايبك هنا، مش مستعد أخسرك لأي سبب!

- يعِز عليا فراقك يا يونس.. حتى لو فراق يومين. خلي بالك على روحك وارجع أوام.

أعددتُ حقيبتي؛ بعض الملابس، بعض المال، والكثير من أقراص الدواء. استقليتُ قطار القاهرة، أحمل في يدي ورقة صغيرة تحمل عنوانًا لا أعرف مكانه بعد.

عدتُ برأسي إلى الوراء، نظرتُ من النافذة.. لا أعلم لماذا ولكنني تذكرتُ حنين، تذكرتُ هذا اليوم بعد تلك الندوة عندما أخذتْني لنتناول القهوة..

***



- تشربي إيه؟

- ممكن أطلب لاتيه.

نظرتُ إلى النادل وطلبتُ لها (لاتيه) ولنفسي قهوة مضبوطة.

- شكلك مكسوفة.. أنا مُسالِم والله!

قلتُها بابتسامةٍ ودودةٍ كمحاولة مني لتلطيف الأجواء.

- اللي أنا بعمله دا أول مرة أعمله في حياتي، أنا في العادي إنسانة بتتكسف من خيالها.

- تفاصيلك بتقول إنك أول مرة تعملي كدا، ودا اللي شجعني إني أوافق.

- تفاصيلي؟!

قالتها في تردد.

- أقصد كسوفِك وتوترك المُبالَغ فيهم.

- دكتور نفسي بقى وبتفهم الناس!

- اعتبريني مش دكتور دلوقتي واحكيلي شوية عنك!

- مش حاسة إني عايزة أتكلم عن نفسي على قد ما عايزة أعرف كل حاجة عنك!

- زي إيه مثلًا؟

- احكيلي بتشوف نفسك إزاي؟

- أنا عامل زي المحارب اللي بقاله سنين وسنين بيحارب وقرر بعد السنين دي إنه يقعد على جزيرة يرتاح في السنين الباقية من حياته.

- ولقيت الجزيرة اللي هترتاح عليها؟

- بدوّر.. لسه بدوّر عليها.

لماذا نفتح أبوابنا لِمَن بنوا أسوارًا حولهم ومنعوا عن أنفسهم الهواء والماء؟ لماذا نعطيهم من إشعاع شمسنا وهم المظلمون لا ينيرون؟

وصل القطار في موعده، وخطتْ قدمي أرض القاهرة في حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، القاهرة التي حاولتُ كثيرًا أن أنساها، أنسى ذكرياتي بها وأيامي، قاهرة أيامي وكوابيسي!

استقليتُ سيارة أُجرة فَور وصولي إلى العنوان الذي كتبتْه لؤلؤ في الورقة، وكلما تحرك السائق في الشوارع كلما زاد هذا الشعور بداخلي حتى تأكدتُ منه؛ نحن ذاهبون إلى نفس المصحة التي كنتُ بها، نفس المصحة التي قتلتُ حنين بها!

فور أن تأكدتُ من هذا طلبتُ من السائق أن يأخذني إلى الفندق الذي كنتُ قد حجزتُ غرفةً به وبدأت في الاستعداد لخطتي.

في لَيلتي الأولى بالفندق، وبعدما انتهيتُ من رسم خطتي خلدتُ إلى الفراش، أُفكر في ماهية تلك الحياة. قبل صعودي إلى الغرفة



أعطاني عامل الفندق ورقة بها كلمة السر للواي فاي الخاص بهم، لا أتذكر أنني في يوم من الأيام كان لي حسابًا على أي موقع من مواقع التواصل الاجتماعي؛ فكرتُ كثيرًا أن أخوض التجربة ولكنني لم أعرف مَن قد أُضيف في قائمة الأصدقاء، لم يكن لي في يوم من الأيام أصدقاء حقيقيون، زملاء ومعارف ولكن لا أصدقاء، في الأغلب صديقي الوحيد الذي أكترث لأمري هو زيتون.

لمدة يومين متتاليين، استأجرتُ سيارة لأذهب بها خارج حدود القاهرة بعدة كيلومترات لمُراقبة المصحة.

كُتبَ بخطٍ يصعب رؤيته على السور الخارجي لقِدَمه الشديد «مصحة الدكتور أسود النفسية والعقلية».

دقائق من البحث في جوجل وعرفتُ أن الاسم الشهير بين المرضى للمصحة هو (الموت الأسود)!

بناية كبيرة تبدو من الخارج أنها مهجورة، لها أسوار ضخمة، كما يُحيطها من كل جانب أشجار عملاقة تجعلك لا تستطيع أن ترى ما خلفهم إلا إن كنت بالداخل.

قطعة مسوَّرة من الأرض تبعث شعورًا بالخوف وانقباض القلب من مجرد مرورك من جانبها، لم يكترث مسؤول أو جهة بالاقتراب من المبنى، فقط تقبع في مكانها هذا منذ نشأتها عام 1980 وحتى توقفها رسميًا عن العمل بعد انتحار الدكتور نجيب أسود عام 2001.



جلستُ في مكاني لساعات حتى عثرتُ على ضالَّتي المنشودة.

في صباح اليوم الثاني من مراقبتي للمصحة، رأيتُ شخصًا أتذكره جيدًا.. رأيتُ الطبيب اللعين الذي كان مسؤولًا عن حالتي في المصحة والذي كثيرًا ما عذبني بجلسات الكهرباء، رأيتُه يقترب من أسوار المصحة، يُخرج من جيبِه مفتاح المدخل، ينظر حوله ليتأكد أنه لا يوجد مَن يراه، وبعدها دَلَف خلف الأسوار العالية.

لحُسن حظي أني ركنتُ السيارة أعلى تَلٍّ يبعد بعض الشيء عن المصحة، وساعدتْني نظارتي المُكبرة على رؤية ما أريد رؤيته بوضوح ودون أن يراني أحد.

أسبوع بالتمام والكمال وأنا أُراقبه من نفس المكان، روتينه اليومي لا يتغير، يصل إلى المصحة في تمام العاشرة صباحًا ويخرج من هناك في تمام السابعة، يعود إلى منزله في تمام الثامنة ولا يخرج منه حتى صباح اليوم التالي، لا يزوره أحد باستثناء عُمال توصيل الطلبات من مطاعم مختلفة، وعرفتُ أخيرًا أن اسمه "الدكتور أنس عبد المجيد".

متى كانت المرة الأولى التي خطَّت فيها قدمي داخل مصحة نفسية؟

بالطبع ليستْ تلك المرة التي قتلت بها حنين، المرة الأولى تعود إلى أعوامٍ كثيرة ماضية، تحديدًا بعد حادثة وفاة زملائي في المدرسة على يد زيتون.

كانت تراني أمي وأنا أتحدث إلى نفسي كثيرًا في غرفتي،



أصرخ وأُعاتب وأحيانًا أضحك مع شيءٍ لا تراه هي، وقتها لم أكن قد عرفتُ زيتون حق المعرفة، كان كل ما يُمثله لي وقتها هو كونه شخص مُخيف بعض الشيء، ملامحه كانت تثير الذُعر لي في بداية معرفتي به وبعدها اعتدتُ وجوده، يظهر ويختفي وقتما يشاء.

في البداية ظنتْ هي أن الأمر لا يتعدى وجود صديق خيالي أتحدث وألعب معه، ولكن مع الوقت، أصبح الخوف هو سيد الموقف في كل ما تراه هي من أفعالي، بدأ الأمر معي ببعض الرسومات البسيطة التي كنتُ أرسمها في كراسة الرسم، أرسم نفسي وخلفي هذا الشيء، وعندما كانت تسألني عن ماهية هذا الشخص كنتُ أُجيبها بكل بساطة وبراءة:

- دا زيتون يا ماما.. العفريت بتاعي.

بالطبع أصابها الهلع، كلمة عفريت قد تخيف الكثيرين. طلبتْ كثيرًا مني أن ترى زيتون هذا ولكنها لم تكن مدركة بقواعده، زيتون لا يظهر إلا لي، لا يراه أو يسمعه غيري، وأخيرًا قررتْ هي ووالدي أن يأخذوني إلى طبيبة نفسية ذات صيت واسع وشهرة كبيرة تُدعى (الدكتورة رحمة منير)، كانت هي ملاك الرحمة بالفعل في طفولتي، وصاحبة فضل كبير في مساعدتي لاجتاز الكثير.

أتذكر اليوم الأول لي في عيادتها، عيادة بسيطة ولكن شديدة الأناقة، مكتب وبعض الكراسي ولا يوجد لديها شيزلونج.

تحدثتْ قليلًا مع أبي وأمي وبعدها طلبتْ منهم أن ينتظروني

بالخارج لتجلس معي وحدنا ونتحدث..

- إزيك يا يونس؟

أجبتُها وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- كويس..

- انتَ عارف ليه بابا وماما جايبينك تشوفني النهاردا؟

- عشان خايفين من العفريت اللي في أوضتي.

- انتَ بتصدق في العفاريت يا يونس؟

- حضرتك بتصدقي فيهم؟

رغم صِغر سِنّي حينها إلّا أنني اسشفيتُ تعجبها من ردي عليها. ابتسمتْ هي وقتها وأومأتْ برأسها وقالت في هدوء:

- اللي مش بيصدق في وجود العفاريت يبقي عبيط يا يونس.

وقتها فقط، وحينما قالت تلك الجملة، وقعتُ في حُبها بلا تردد، اعتبرتُها صديقة قديمة وستظل صديقتي إلى الأبد.

- طيب هما ليه خايفين؟

- كلنا بنخاف من حاجة يا حبيبي، أنا مثلًا بخاف من الحشرات، دي مش حاجة تخليني غريبة. انتَ مثلًا بتخاف من إيه؟

- مش عارف.. مافيش حاجة بخاف منها.



- شاطر.. عشان كدا إحنا هنبقي صحاب. عايزاك تحكيلي بقي عن العفريت بتاعك وإمتى أول مرة شوفته!

يومها فكرتُ قليلًا، أنا حقًا لا أتذكر متى كانت المرة الأولى التي رأيتُ زيتون بها، لا أتذكر البداية ولا أعلم لماذا، كل ما علمتُه وقتها أني أريد أن أرى رحمة مرة أخرى، نسعدُ بمَن يُشبهنا، نسعد بمَن يرانا كما نحن بلا تكلّف أو تزييف، نسعد بمَن يرى طبيعتنا شيء مختلف وليس بعَبَث.

لذلك اعتبرتُها صديقة قريبة إلى قلبي.

***

الدكتور أنس عبد المجيد، نحيل بغيض يشبه الضباع في أشكالهم وطباعهم؛ يتميز حيوان الضبع بأنه يمتلك يدين طويلتين وعُنُق قوي وكتف لتمزيق الفرائس وحملها، وبالإضافة لامتلاكه أقدام لا تتعب فإنه يتميز بنظرِهِ الثاقب والسمع القوي وحاسة الشم التي تُمكنه من تحديد موقع اللحوم، وبالتالي فإنه يعد صائدًا بارعًا، كما تتميز جميع أنواع الضباع بأنها أكثر أو أقل نشاطًا أثناء الليل بالإضافة إلى كونهم حيوانات تعيش في الأغلب على فضلات الصيد، أو بمعنى آخر الحيونات الميتة أو التي قاربتْ على الموت، هكذا كان أنس عبد المجيد؛ ضبع بشري حقير يعيش على بقايا الحياة.

درستُه جيدًا وعرفتُ روتينه كمَن يعيش معه، وذات مساء اتصلتُ بصديق قديم لأطلب منه شيئًا قبل تنفيذ خطتي...



- إزيك يا عم نونو؟

- أحلى يونس باشا شريف في الدنيا! واحشني يا باشا!

- والله انتَ اللي واحشني وقاعدة الشوي بتاعة زمان وحشاني. المهم اسمع.. أنا عايزك تيجي تقابلني وتجيبلي معاك مسدس صوت. اكتب عندك العنوان...

خطتي كانت بسيطة، سأتسلل إلى منزل أنس في الليل، أُهدده لأعرف منه معلومات عن صحة وجود ياسمين في المصحة، سنذهب ونخرجها وتنتهي القصة، ولكنني أدركتُ أني لا أفقهُ شيئًا عن القصص الواقعية!

في مساء الليلة التالية تسللتُ بالفعل إلى منزله، ساعدتني (طفاشة) النونو على الدخول إلى الشقة، ولكن ما رأيتُه في تلك الشقة جعلني أُعيد ترتيب خطتي في ثوانٍ معدودة...

الشقة أقرب إلى معملٍ طبي لمخترع مُختل، الشقة تحتوي على العشرات من الجُثث البشرية، الكثير من القوارير التي أدركتُ على الفور وجود أعضاء لأشخاصٍ بداخلهم!

أشعر وكأني قد سقطتُ سهوًا في واحدة من كوابيس صحوي، أخرجتُ هاتفي وبدأتُ في تصوير كل شيء في حذر. لم أرَ أنس بعد ولكني أسمع صوت (شخيره) في غرفةٍ أُخرى وكأنه لم ينَم منذ زمن.

أخذتُ الكثير والكثير من الصور، ثم اقتربتُ من غرفتِه فوجدتُها هي الأخرى تشبه الكوابيس المقيتة؛ على الفراش إلى



جانبه كانت تقبع جثة لفتاةٍ عشرينية، ينام هو إلى جانبها وكأنها زوجته أو حبيبته. يداي ترتعشان ولكني تماسكتُ والتقط صورًا عديدة له إلى جانب تلك الجثة.. هذا اللعين!

هناك أشخاص لا يخشون جُثث الموتى بل يعشقونها، يستمتعون في أحضانها الباردة العفنة، يُقلِّبونها ويُقبِّلونها، يُفرغون فيها شهوتهم الحيوانية، إنها بالنسبة لهم الشريك الأمثل، فهي لا تتكلم، لا تتألم، ولا تُحدِّق باشمئزازٍ إلى وجوههم الكالحة المكفهِرة.

نيكروفيليا!

نظرتُ إليه باشمئزاز، أغمضتُ عيني مُتذكرًا تلك القصة التي قرأتُها كثيرًا ولم أكن أُصدقها، قصة فتاة دار الجنائز..

تحكي القصة أن في أحد أيام عام 1979 كانت الفتاة الشابة التي تعمل بدار جنائز في كاليفورنيا تقود عربة الموتى باتجاه المقبرة من أجل تسليم جثمان رجل ثلاثيني مات حديثًا، كانت والدة الميت وأفراد عائلته ينتظرون بعيون دامعة بجوار القبر المُعَد للدفن، انتظروا طويلًا، لكن لا أثر لعربة الموتى، اتصلوا بدار الجنائز الذي قامت بتهيئة الجثة للدفن متسائلين عن سبب عدم وصول التابوت، لكن العاملين هناك أخبروهم بأن سيارة نقل الموتى غادرت مع التابوت منذ عدة ساعات وكان من المفترض أن تصل إلى المقبرة منذ زمن بعيد.

"ماذا جرى لعربة الموتى؟" تساءل الجميع بحَيرة.

حل المساء ولم يظهر لها أي أثر، فاضطر الجميع لمغادرة المقبرة



لأنهم يأسوا تمامًا من وصول تابوت الرجل الذي اجتمعوا لدفنه.

عائلة الميت تقدمتْ بشكوى إلى الشرطة تُطالب فيها باستعادة جثة فقيدهم، لذلك توجَّه المُحققون إلى دار الجنائز لمعرفة ملابسات الحادث، وقد أخبرهم العاملون هناك بأن إحدى العاملات في الدار وتدعى (كارين غرينلي) غادرتْ صباحًا وهي تقود سيارة نقل الموتى بمفردها متوجهة صوب مقبرة المدينة لتسليم التابوت، وقد كان من المفروض أن تصل إلى هناك خلال أقل من نصف ساعة، لكن كارين والسيارة اختفيا تمامًا ولا أحد يعلم مصيرهما.

بعد يومين من اختفاء الجثة عثرتْ الشرطة على عربة الموتى متوقفة عند مدخل أحد المنازل التي لا تبعد عن دار الجنائز سوى بضعة شوارع، طرقوا الباب طويلًا من دون أن يجيبهم أحد، وفي النهاية قاموا باقتحام المنزل ليعثروا في إحدى الغُرَف على ما لا يخطر على بال أو خيال..

كانت كارين غرينلي تستلقي عارية تمامًا داخل التابوت المفقود إلى جوار جثة الرجل الميت والتي كانت عارية تمامًا هي الأخرى! كانت كارين فاقدة للوعي تقريبًا إثر تناولها لجرعةٍ زائدة من (الكودين) وهو مسكن للألم ودواء للسعال، وإلى جوارها داخل التابوت عثرتْ الشرطة على رسالة طويلة كتبتْها كارين على أربعة صفحات اعترفتْ خلالها بممارستها للجنس مع جثث أكثر من عشرين رجلًا خلال عملها في دار الجنائز، كما أبدتْ ندمها على نزواتها الجنسية الشاذة تلك وكتبتْ تقول:

"لماذا أفعل هذا؟ لماذا؟ خوفًا من الحب، من الدخول في علاقة؟ لا يوجد عشق مؤلم كهذا. أنا فأر مشرحة، هذا هو جُحري، وربما يكون قبري".

فتحتُ عيني على صوت الدكتور أنس وهو يصرخ:

- انتَ مين؟

ابتسمتُ له وأنا ما زلتُ مُمسكًا بهاتفي وأجبتُه:

- مش هستغرب إنك ناسيني.. أكيد اللي عملته فيا بيتعمل كل يوم في ناس كتير!

- أنا مش فاهم انتَ بتتكلم عن إيه بالظبط!

أخرجتُ مسدس الصوت الذي أعطاني إياه النونو وأشرتُ إليه به والابتسامة ما زالتْ تعلو وجهي:

- لو مش فاكرني فأحب أفكرك بنفسي، أنا (فينسنت).. كنت في المصحة من كام شهر. لسه برضه مش فاكرني؟

- انتَ.. انتَ اللي قتلت مراتك! أنا ماليش أي ذنب.. هي اللي كانت بتطلب مني أزوّد جلسات الكهربا وأحطلك الأدوية في أكلك.. أنا عبد المأمور!

- كل الكلام دا ما يفرقش معايا. اسمع كلامي كويس أوي يا أنس.. عندك قهوة في البيت دا؟

في الأغلب أصابه الاندهاش من طلبي، فسأل ليتأكد من طلبي:



- عندي إيه؟!

- قهوة.. إيه مش عارف القهوة؟

- عندي آه.. تشرب قهوة؟

- لا، القهوة دي تقوم تعملها لنفسك عشان تفوق معايا وتسمع اللي أنا عايز أقوله، وما تنساش منه ولا حرف.

قام من مكانه كالمُنَوَّم مغناطيسيًا، أَعَدَّ إلى نفسه كوبًا من القهوة بعدما ارتدى بنطاله، وجلس أمامي وهو ما يزال مذعورًا.

- نيكروفيليا يا دكتور!

تردد قليلًا قبل أن يُجيبني قائلًا:

- هو الدكتور ما ينفعش يبقي مريض؟

- بس بلاش كلمة (دكتور) دي خسارة فيك. وفي طريقي لأوضتك شوفت أعضاء بشرية وجثث، طبعًا جثث مرضى المصحة اللي بيموتوا من تعذيبك ومفيش عندهم قرايب يسألوا عنهم.. كان زماني واحد منهم دلوقتي!

فتح حقيبة سفر ضخمة كانت تقبع على الأريكة بجانبه وأخرج منها الكثير من الرُزَم المالية وسألني:

- عايز كام؟

- فلوسك ما تلزمنيش يا أنس.. اللي أنا عايزه هو إنك تخليني أشتغل في المصحة، تقدمني على إني دكتور جديد من صحابك،



وتاني يوم تقدم استقالتك.

بدأ أنس في الضحك بطريقة هستيرية بعدما سمع جملتي الأخيرة، ضحك كثيرًا حتى أصبح من الصعب عليه أن يلتقط أنفاسه، وقال:

- الاستقالة دي أقدمها لما أكون شغال موظف.. اللي بيدخل مصحة الدكتور أسود مش بيسيبها، بتبقي عاملة كده زي الوشم يا أستاذ يونس، بتبقى جزء منك وبتبقى جزء منها. اللي سموا المكان دا (الموت الأسود) مش العيانين.. الدكاترة هما اللي سموها كدا، لأنه ببساطة بيقتل كل اللي جواه واحدة واحدة. ونصيحتي ليك بلاش تدخل المكان دا وروح كمل حياتك. انت قتلت مراتك في المكان الوحيد اللي ماحدِّش بعدها هيحاسبك، لأن ببساطة لو حد شم خبر إن المكان دا موجود هتبقى نهايتنا كلنا.

- قصة جميلة.. بس صدقني كل اللي انت قولته دا مش هيغير حاجة. من بكرة أنا هبقى الدكتور الجديد في المصحة، وتسيب الشغل وتموت براحة أحسن ما تموت دلوقتي بسرعة.. على الأقل وقتها هيبقى في احتمال ولو واحد في المية إنك تعيش. دا طبعًا غير الفيديوهات والصور اللي على تليفوني واللي برضو هتكون سبب في موتك. فما دام كدا موت وكدا موت اعمل أي حاجة صح.

كنتُ أعلم أنه سيأتي تلك الليلة، بعدما تركتُ أنس وعدتُ إلى غرفتي بالفندق، كان هو هناك في انتظاري جالسًا في شرفة الغرفة يبدو عليه الغضب..

- لسه مصمم؟

- آه.

- أول مرة خرَّجتك من هناك بالعافية.. المرة دي مش عارف إيه اللي هيبقى مستنينا!

- وأنا مش هتخلي عن ياسمين يا زيتون، حتى لو مافيش أي ضمانات.

- ياسمين ماتتْ قدام عينيك يوم ما وقعت في البير.. انت دفنتَها بإيدك يا يونس!

اقتربتُ منه قليلًا والغضب يتطاير من عيني:

- طب ولؤلؤ؟ والسلسلة؟ إيه تفسيرك؟ أنا هدخل المصحة واللي يحصل يحصل.

كنتُ أُحب عيادتها حقًا، هي من حبيبتْني في تلك المهنة، رحمة الجميلة، أحببتُ رقتها وتفهمها، أحببتُ تشابهنا، كنتُ أنتظر لقائي الأسبوعي مع رحمة، كانت هي بطلتي الخيالية التي ظهرتْ لتنقذني من الوحش، والوحش في حياتي كان اسمه (أحمد ليل).. والدي.

- بتحب بابا أكتر ولا ماما يا يونس؟

- بحب يارا أكتر منهم هما الاتنين.

- يعني مش بتحب ماما منال وبابا أحمد؟

ولكنها لم تجد ردًا، فسألتْ سؤالًا آخر:

- إيه الحاجات اللي مش بتحبها في ماما منال وبابا أحمد؟

- ماما ساعات بتبقى طيبة.. بس بابا بيخوّفني.

ثم أكملتُ جملتي بعد تردد:

- العفريت بيحبني أكتر من بابا.

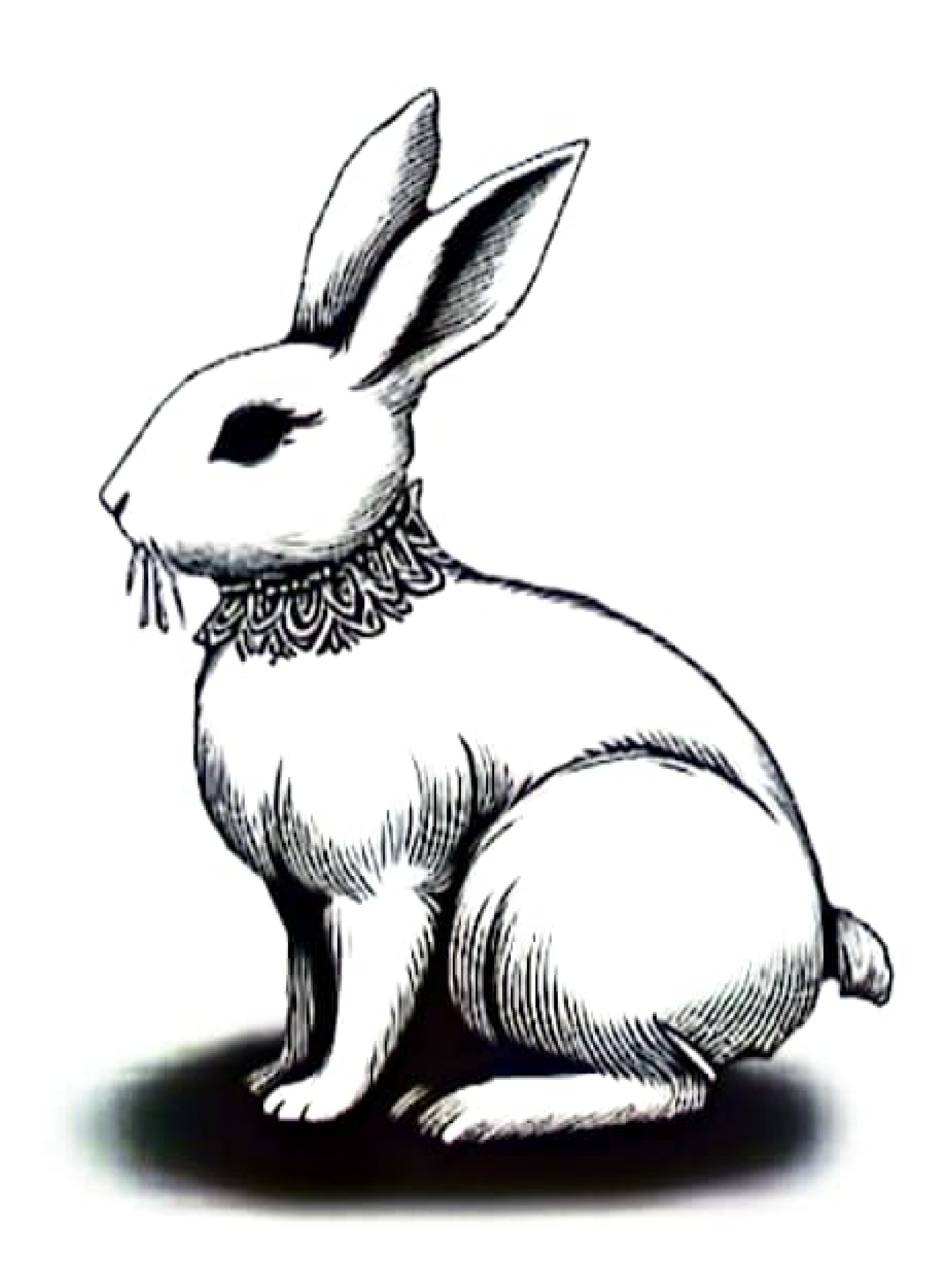
كانت دائمًا تُعطيني كراسة للرسم والكثير من الألوان، تطلب مني أن أرسم لها أي شيء، تقول أن الرسم سيجعلها تعرفني أكثر وتقترب مني أكثر، وبقدر حبي لها إلا أنني لم أعرف ماذا أرسم.

***



الفصل الثالث

مصحة الموت الأسود





في صباح اليوم التالي كنتُ في طريقي إلى المصحة ومعي أنس، وصلنا إلى السور العظيم، أدار مفتاحة ودَلَفنا من السور الخارجي للمصحة.

- لسه مصمم؟

- فات وقت الكلام خلاص.

عرفتُ في تلك اللحظة لماذا لم يتم اكتشاف هذا المكان مِن قبل، فور أن تعبر السور لن ترى شيئًا، مجرد قطعة كبيرة من الأرض بلا أي مبنى، أشجار ميتة وحشائش بالية في كل مكان، لا يوجد سوى كشك خشبي صغير، ربما يخص حارس الأرض، وقتها ظننتُ أن أنس يخدعني ويأخذني إلى مكانٍ آخر، جذبتُه من عُنقِه وصرختُ به:

- مش قولنا بلاش تلعب معايا يا أنس!

- والله ما بلعب.. شكلك ما تعرفش حاجة عن دكتور نجيب أسود! الراجل دا كان أوسخ من الشياطين، مدخل المصحة جوا الكُشك الصغير اللي قدامك دا.

تبعتُ خطواتَه في حذر، وللغرابة هو لم يكن يكذب، دلفنا سويًا داخل الكشك الصغير، بداخله جذب أنس ذراعًا حديديًا صغيرًا فانفتحتْ أرضية الكشك على مصراعيها لتكشف عن سلالم صغيرة تقودنا إلى تحت الأرض، وفي نهاية السلم كانت المفاجأة بانتظاري.. نحن في مصحةٍ تحت الأرض!

- غريبة إنك هربت من المكان دا ومش فاكر أي حاجة!



رنَّتْ جملتُه في أذني، لماذا لا أتذكر أي شيء؟!

- أنا فعلًا مش فاكر أي حاجة.

المصحة لا تشبه تلك التي نراها في الأفلام، لا يوجد دماء تُلطّخ الحوائط، بل البرودة هي سيدة الموقف، كل شيءٍ بارد في المكان.

ما أن هبطنا السلم حتى أصبحنا في بهوٍ عملاق، يُشبه بَهو القصور، يُحيط هذا البهو العشرات من الزنازين ذات الأبواب الخرسانية، المكان أشبَه بالسجن، رائحة الطلاء تستطيع استنشاقها بسهولة، على ما يبدو أن المصحة تم طلائها حديثًا! تعجبتُ اهتمامهم بطلاء هذا المكان رغم كآبته! يُخيّم على المكان هدوءٌ مخيف، لا أصوات ولا همهمات وكأن المكان خالٍ من البشر والحياة. في الناحية المقابلة للسلم الذي هبطنا منه يوجد سلم آخر إلى جانبه لافتة صغيرة كتب عليها «غرفة المدير يمين - غرفة الأطباء يسار»، وفي إحدى أركان البهو رأيتُ سُلمًا يأخذك إلى أسفل، وكأنه طريق إلى سردابٍ كُتب إلى جانبه لافتة عليها «غرفة العزل النفسي وغرفة التأمل إلى أسفل»، تفاصيل المكان مُخيفة؛ الكثير من الكراسي المتحركة التي أصابها التلف والصدأ، آثار أظافر نُقشتْ على أبواب الزنازين في الأغلب من مقاومة المرضى، أسمع صوتًا لموسيقى كلاسيكية يصعب تمييزها بسبب بُعدها، ولكنها تعطي المكان إحساسًا مُخيفًا أكثر وأكثر، أنظر حولي ولكني لا أرى أحدًا سوى أنس!

- هي المصحة مافيهاش مرضى؟



- الساعة لسه 7 الصبح، مافيش حد صحى من العيانين، وحتى عم منير التمرجي بيجي 8.. الوحيد اللي بيجي هنا من 6 هو الدكتور أسود مدير المستشفى.

- مش الدكتور أسود انتحر من سنين؟

- اللي انتحر هو الدكتور نجيب أسود.. اللي هنقابله دلوقتي دا الدكتور عادل، ابنه ووريثه الوحيد.

صعدتُ خلف أنس السلم القديم، وكلما صعدتُ درجة كلما تذكرتُ فتاة الحلم. مشينا في رواقٍ طويل إضاءته تكاد تكون معدومة، في نهايته غرفة بابها ضخم نُقش عليها حرف (أ). استأذن أنس ودخلنا سويًا الغرفة.

غرفة كبيرة ذات مكتب شديد الأناقة، خلف المكتب عُلِّق برواز كبير لرجلٍ عظيم الهيبة، استشفيتُ أنه نجيب أسود. في إحدى أركان الغرفة وجدت تمثالًا بالحجم الطبيعي لـ (سيجموند فرويد)، شخصية فرويد كان لها مكانة كبيرة لديَّ، اشتهر طبيب الأعصاب سيجموند فرويد بتطويره لنظريات التحليل النفسي وطُرُقه، والتي تُعَدّ النواة لأساليب الطب النفسي الحديث التي تعتمد على تحدُّث المريض عن مشاكِله دون أي عوائق، وقد ساهمتْ نظرياته وأبحاثه في علاج العديد من الأمراض النفسية، وفي تفسير سلوكيات المجتمعات والثقافات المتنوعة.

على الرغم من تكريس فرويد حياته من أجل الصحة النفسية للآخرين، فإنه لم يسلم من الوقوع ضحية لبعض الاضطرابات النفسية، وكان يعاني من رهاب السفر، كان مدمنًا للتبغ، مما



أودى بحياته في نهاية المطاف. ومع أنه كان يُلقَّب بطبيب المشاعر إلا أنه اعترف بعدم قدرته على فهم النساء مطلقًا، وكان يُطلق عليهن اسم «القارة المظلمة».

دخل علينا من بابٍ خلفي شخصٌ يبدو على وجهه البشاشة، يبدو أنه في العقد الخامس من عمره أو أصغر، وسامته تطغى على سِنِّه، لا تخلو نظراته من التوتر والأسرار، يرتدي حُلَّةً أنيقة، وفي يده خاتم لفت نظري في التو. أدرَك إعجابي الشديد بالتمثال، اقترب مني ووضع يده على رأس فرويد بفخرٍ وأول ما قاله كان:

- الطريق الذهبي إلى اللا وعي.

- نعم؟

ابتسم وهو يشير إلى التمثال:

- فرويد كان بيقول كدا على الأحلام. افتكرتك تعرف عنه حاجات كتير من نظرتك للتمثال اللي كلها سعادة دي.

يبدو عليه الذكاء الشديد وسرعة البديهة، والأغرب عدم تعجبه من وجودي في مصحته السرية!

ابتسمتُ بصعوبةٍ وأجبتُه:

- أكتر حاجة فاكرها من قصته إنه مات مُنتحر.. دي أكتر حاجة كانت بتشدني في حكايته.

- ليه؟ عشان طبيب نفسي؟ مين قال إن الدكتور النفسي معصوم من المرض؟

في تلك اللحظة تذكرتُ أن والده -الدكتور نجيب- مات منتحرًا، فحاولتُ أن أتدارك ما قلتُ سريعًا:

- الطبيب النفسي في الآخر بشر، وكلنا مُعرَّضين للمرض النفسي.

تدخَّل أنس وقال:

- دا الدكتور يونس يا دكتور عادل، صديقي وبعد إذنك هيبدأ معايا شغل في المستشفى هنا..

صمتَ عادل أسود لبُرهة وهو يجول بنظره بيني وبين أنس، ثم قال بهدوء:

- بقالك سنين بتشتغل معايا وأول مرة تقولي إنك عايز دكتور تاني ييجي يساعدك.. مش غريبة دي؟! أفكرك انتَ طفِّشت كام موظف من المكان دا؟ ومن إمتى حد بيدخل المصحة من غير موافقتي يا أنس؟

- الدكتور يونس صديق قديم، كان عايش في ألمانيا وبيشتغل هناك، و لما عرفت إنه عايز يرجع مصر قولت إحنا نستفيد منه أحسن من غيرنا.. ولا إيه يا دكتور؟

صمتَ قليلًا وبعدها وجَّه كلامه إليَّ:

- كنت بتشتغل فين في ألمانيا يا دكتور؟

- فرايبورج.

أدركتُ مُسبقًا أن مدير المستشفى سيسأل كثيرًا ويراقب كثيرًا، وهذا ما كنتُ قد أعدتُ له مسبقًا، الكثير من التحضير لامتحانه



المفاجئ.

- عظيم.. على كدا انتَ شاطر في مجالك؟

- اللي بيتكلم كتير يا دكتور تخاف منه.. الأفعال صوتها أعلى.

- كلام هايل! أنا هخليك تحت التمرين لمدة الشهر، ولو أثبَت كفاءة هتتعين بعد الشهر دا، الحالات عندنا بتزيد، والمكان دا ما ينفعش أي حد يدخله!

- موافق.

- بس أنا ليا شرط، الشهر دا انتَ هتقعده هنا في المصحة، وطبعًا إحنا مش حابسينك، بس هو دا شرطي.

- هو طلب غريب، بس أنا ما عنديش مانع.

- شوف يا دكتور يونس، المكان دا عامل زي اللعنة اللي مالهاش حل، دكاترة كتير انتحرت بسبب شغلهم هنا، ومنهم اللي بقوا عيانين، عشان كدا أنا عايزك تفضل في الأجواء دي لشهر كامل وبعدها يا تفضل يا نقولك مع ألف سلامة ونورتنا. بس خلي بالك.. اللي بيحصل في المكان دا ما ينفعش يطلع برا المكان دا!

- كلامك منطقي. أقدر أشوف الأوضة اللي هقعد فيها؟

- عم منير التمرجي زمانه على وصول، هيبقى تحت أمرك، لو تحب تاخد جولة أعرفك على الحالات اللي هتستلمها؟

- طبعًا.. أحب جدًا.



عدنا مرة أخرى إلى البهو، أخبرني الدكتور عادل أسود بأني سأتولى مبدأيًا ثلاث حالات كبداية بسبب ضغط العمل عليه وعلى أنس.

أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه وفتح لنا باب أول زنزانة، غرفة صغيرة تتكون من كرسي وطاولة صغيرة وسرير سفري قابل للطَي، بالإضافة إلى مرحاض وحوض صغير، الغرفة بالكامل مطلية باللون الأزرق الكئيب. على الكرسي جلس رجل عجوز، لحيته بيضاء غير مُهندمة، على الأغلب في العقد السابع من العمر، ينظر إلى الحائط وفي يده يحمل صورة فوتوغرافية لم أتبينَها. لم يُبدِ أي اهتمام بنا عندما فتحنا عليه الباب، ظل في ثباته.

- دا أستاذ سعد، أول حالة هتكون معاك يا بطل. أستاذ سعد مصاب بمتلازمة (كابجراس).. في البداية قولت إن دي أعراض شيخوخة وإنه مثلًا مصاب بالزهايمر، بس الموضوع طلع أكبر من كدا.

تذكرتُ في تلك اللحظة قصة السيدة التي قتلتْ زوجها لاعتقادها بأنه استُبدِل بشخصٍ آخر يريد قتلها.

متلازمة كابجراس، مرض نفسي نادر يتوهم فيه المريض أن كل من حوله من أفراد أسرته أو أصدقائه قد تم استبدالهم بأشخاصٍ يشبهونهم من قِبَل شخصٍ مُحتال، وقد يصل الأمر إلى أنه من المحتمل أن يشك هذا المريض أن حيوانه الأليف قد تم استبداله، وقد ينتج عن هذا الوهم أن المريض يحاول الهرب من أسرته أو قتلهم من أجل الدفاع عن النفس لأنه يظن أن أحدهم



سوف يقوم بقتله. يحدث هذا الوهم عادة لدى المرضى المصابين بداء الفصام وقد يظهر أيضًا على المرضى الذين يعانون من إصابةٍ بالدماغ ومرض الجنون، فيظهر غالبًا المصابين بمرض الأعصاب، وخاصة كبار السن، وتحصل أيضًا لرابطة المصابين بداء السكري ومَن يعانون نوبات الصداع النصفي. في بعض حالات المرض المنعزلة يكون وهم كابجراس مؤقتًا لأسباب صحية، كتناول مخدرات الكيتامين.

- أستاذ سعد بياخد كيتامين يا دكتور أسود؟

- شكلك مذاكر كويس يا دكتور يونس، بس لأ الأساليب عندي في العلاج مش أساسها المخدرات.. هتشوف بنفسك مع الوقت.

ثم أمسك يدي في حركةٍ مفاجئة أربكتْني قليلًا وقال:

- إوعى تكون بتخاف يا دكتور يونس!

فابتسمتُ وأجبتُه:

- ماتخافش عليا يا دكتور.

تركنا الزنزانة الأولى وأستاذ سعد ما زال في ثباته العجيب ودخلنا الزنزانة التالية.

نفس الشكل والمحتويات، إلا أن تلك الغرفة كانت محتوياتها مُبعثرة بالكامل، الطاولة مكسورة، الكثير من بقع الدماء على مرتبة الفراش، الكثير من الخدوش وآثار دماء على الحائط، وفي أحد أركان الغرفة جلستْ شابة عشرينية على الأرض وقد تم



تقييد يديها، نظرتْ إلينا الفتاة وشفتاها ترتعشان، لونها شاحب كالجليد.

- بلاش نظرتها تأثر عليك.. دي الأميرة ديانا، أشهر suicidal في المصحة. خلال السنة دي حاولت تنتحر 30 مرة، حالة مرهقة بس بصراحة بتبهرني بأفكارها المبتكرة في الانتحار. في الآخر عم منير التمرجي اقترح إننا نربط إيديها زي ما انتَ شايف كدا طول ما هي في الأوضة لوحدها.

- ربط المريض زي الحيوانات عمره ما كان علاج يا دكتور!

- ما هو اللي إيده في المياة بقى يا دكتور يونس! بكرة تشوف.. هتلاقي نفسك بتربطها من رجليها كمان.

تركنا غرفتها وعيني ما زالتْ مُعلقة على تلك المسكينة الجميلة والتي لا أعلم ما الذي اقترفته في حياتها لينتهي بها الأمر في هذا المكان اللعين.

الزنزانة الثالثة كانت مختلفة بعض الشيء، فور أن فتح أسود الباب استنشقتُ رائحة كريهة، الغرفة خالية تمامًا من أي محتويات باستثناء جردل وبعض القش المتناثر والذي امتلأ بالقذارة، كان المريض نائمًا وهو عارٍ تمامًا على بعض القش باستثناء بنطال مهترئ، لم يشعر حتى بنا عندما دلفنا إلى غرفته.

- أقدر أفهم المريض دا عريان كدا إزاي؟ ولا دا كمان من طرق العلاج يا دكتور؟

قلتُ جملتي بحِدَة شديدة، ولكنه فقط ابتسم وقال:



- اضطراب بوانثروبي.

أجمتْني الجملة.

أعلم أني طبيب نفسي ماهر، ولكني لم أُقابل في حياتي يومًا مريضًا باضطراب بوانثروبي، بل في الواقع أني لم أكُن أُصدق في وجود هذا المرض فعلًا؛ أراهُ أشبَه بالأساطير الخيالية، الشخص صاحب القصة الأشهر في التاريخ لهذا المرض كان نبوخذ نصر الثاني، حكت كتب التاريخ كثيرًا عن الملك القوي العتيد الذي أصابه مرض غريب فراح يجول في الغابات معتقدًا بأنه ثور، وأصبح يأكل الأعشاب وينام في العراء حتى وفاته. حكايات كثيرة وغرائب ولم يأتِ في بالي يومًا أني سأُقابل حالة حقيقية لهذا المرض.

- إيه يا يونس روحت فين؟!

- معاك يا دكتور. بس يمكن لسنين كتير المرض دا بالنسبة لي كان مجرد خيال مش موجود على أرض الواقع، حاجة شبه المستذئب كدا!

- دا الحالة التالتة بتاعتك يا دكتور.. صلاح.

رحَّب بي مرة أخرى في المصحة، و بعدها تركني مع أنس، وقبل أن أسأله عن كل ما رأيتُ الآن وسمعتُ وعن قصة مكوثي في المصحة لمدة شهرٍ حتى ظهر رجل قصير ضئيل الحجم، يرتدي ملابس يبدو بداخلها كقزم إلّا أنه ليس بقزم، هو فقط ضئيل الحجم، العرق يتصبَّب منه وعلى وجهه ابتسامة لا تخلو من

الخوف..

- صباح الخير يا دكتور أنس!

لم يرد عليه أنس السلام بل هَمَّ بتعريفي له:

- دا الدكتور يونس يا عم منير ، هيبقى معانا من النهاردا..

ثم أكمل كلامه وهو يُوجه كلامه إليَّ:

- عم منير أقدم واحد في المصحة.. وكان دراع دكتور نجيب أسود اليمين.

ثم نظر إلى عم منير بكل سخرية بعدما قال جملته الأخيرة وقال وهو يضحك:

- ما اعرفش كان دراعه اليمين إزاي دا.. دا آخره يبقى صباعه اليمين!

لم يجد أي رد فعل مني على مزحتِه ثقيلة الدم، فشعر ببعض الإحراج. ابتلع ريقه بعدما طلب من عم منير أن يأخذني إلى غرفتي:

- أنا عندي حالات لازم أتابعهم.. هعدي عليك آخر اليوم عشان نروح الفندق تجيب شنطتك.

قال جملته الأخيرة وتركني مع عم منير.

لم تنبث شفتاه كلمة واحدة وهو يرشدني إلى غرفتي، أخرج مفتاحًا من جيبه يبدو عليه القِدَم الشديد، دَلَفنا سويًا إلى تلك



الغرفة؛ لا تختلف كثيرًا عن زنازين المرضى، باستثناء وجود مُبرِّد للهواء، ثلاجة صغيرة، والفراش أكبر قليلًا من السرير السفري، الغرفة رغم برودتها إلا أنها تبدو نظيفة. ظللتُ أتفقّد الغرفة ومنير يقف خلفي ينتظر رأيي في الأغلب.

- الأوضة كويسة يا دكتور؟

- زي الفل يا راجل يا جميل. لو بقى تقدر تتصرّفلي في كنكة وسبرتاية تبقى خدمتني.

- عيوني. طب والبُن والسكر؟ معاك ولا أجيبلك من المطبخ؟

- لا، أنا هجيب البن بتاعي لما أروح أجيب شنطتي.

- عيني. الفطار في المصحة بيتوزّع على العيانين الساعة 10والعشا بيبقى الساعة 6.. هتلاقيني بجيب لحضرتك وجبتك في الوقت دا. أوامرك سعادتك!

- شكرًا يا عم منير. انتَ في المصحة دي فعلًا من أيام الدكتور أسود الكبير؟

- مظبوط.. أنا طول عمري مع الدكتور نجيب أسود، الله يرحمه.

- ما عندكش فكرة هو ليه مات منتحر؟

- ساعة شيطان بقى يا باشا.. ياما ناس كتير زي الفل انتحرت!

لم أقتنع بإجابته.



- هي المصحة فيها عيانين قد إيه؟ أصل الدنيا هادية أوي.. بصراحة أول مرة أشوف مصحة تحت الأرض!

- المصحة هنا يا باشا تقدر تقول عليها (في آي بي).. مش بنستقبل فيها أكتر من 10 عيانين في نفس الوقت.. كل العيانين اللي هنا ناس ولاد ذوات وأهاليهم اللي جابوهم هنا بيدفعوا ليهم شيء وشويات. بالك انت يا دكتور واحدة زي الآنسة ديانا أهلها بيدفعولها بلاوي عشان تفضل في المصحة هنا وماتعملش قلق برا.

- وفيه كام بنت غير ديانا في المصحة؟

- الساعة داخلة على 10.. لازم أروح أحضر الفطار.. بعد إذنك يا دكتور!

كان زيتون يتابع الحديث منذ بداية وصولي إلى المصحة، يقف إلى جانبي ويستمع جيدًا لما يحدث، فور أن رحل عم منير حتى ظهر زيتون وجلس على المقعد المقابل للفراش..

- مش كئيبة شوية الأوضة دي؟

- زيتون، قلتلك إني لازم ألاقي ياسمين!

- عنيد.. طول عمرك عنيد يا يونس وبتمشي ورا دماغك وفي الآخر ترجع تقولي (الحقني يا زيتون!).. هتتعلم إمتى؟!

- صدقني، أنا ماعنديش طاقة لأي جدال.. لو مش عايز تساعدني تقدر تختفي زي الفترة اللي اختفيت فيها وأنا في أسوان.

- أنا اختفيت عشان لقيتك عايش مبسوط، اختفيت لما لقيت



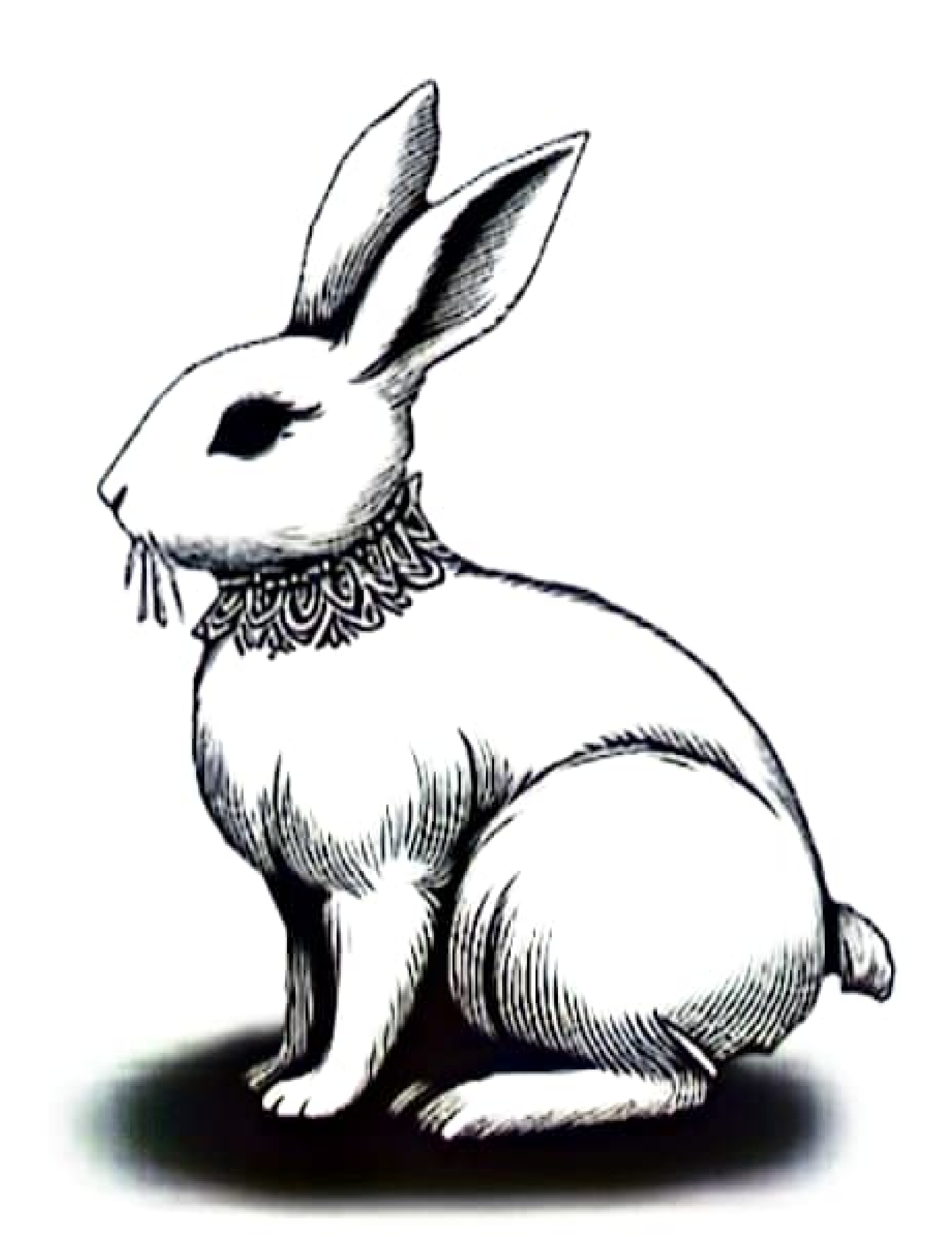
حياتك لأول مرة اتصلَّحت وبقيت عارف تكون مبسوط. وجودي ساعتها ما كانش هيبقى كويس عشانك.. وعلى العموم أنا مش هختفي. خليني وراك يا يونس يا أحمد يا ليل!

أحمد ليل... والدي الراحل!



الفصل الرابع

كلنا مرضى يا يونس





في عيادة الدكتورة رحمة، جلستُ أمامها في سعادةٍ كعادتي عندما أراها كل مرة. أعطتْني بعض الألوان وطلبتْ مني أن أرسم لها شيئًا، كعادتي أجبتُها بأنني لا أعلم تحديدًا ما يجب عليَّ أن أرسمه، كررتْ هي إجابتها وقالت أنها تريدني أن أرسم ما يحلو لي، أن أرسم ما يجول ببالي وروحي.

أمسكتُ اللون الأسود ورسمتُ بيتًا صغيرًا، إلى جانب المنزل رسمتُ أبي وأمي وأختي يارا وأنا إلى جانبها، وفوق رأسي رسمتُ طيفًا أسود. نظرتْ هي إلى الرسمة باهتمامٍ وسألتْني:

- اللي فوق راسك دا العفريت؟

- آه.. بس هو مش بيبقى موجود طول الوقت.

في المساء، خرجتُ من الفندق بعدما لملمتُ أغراضي وعدت إلى المصحة ومعي أنس. ابتعتُ البُنَّ والسكر وبعض اللوازم، لم ينطق أحدٌ مِنَّا طوال الطريق حتى تحدَّث هو ونحن على مَقربة من المصحة:

- لسه عايزني أسيب المصحة؟

قالها أنس ببعض الاستعطاف، ولكني تكهنتُ من طريقتِه بأنه يقول لي "أسيبك هنا لوحدك؟".

- صدقني، دا لمصلحتك.. بس بعد اليومين دول ما يعدوا عشان كل حاجة تمشي زي ما مخططلها مظبوط.

- ماشي يا عم يونس. طب والصور والفيديوهات؟

- طول ما انت جدع معايا أنا كمان هفضل معاك يا أنس.

أدخلني أنس المصحة وعاد إلى منزله.

سرَتْ في جسدي قشعريرة مُربكة عند شعوري بأني سأبقى تحت سطح الأرض لفترةٍ من الزمن، خوف وقلق ممزوجين برغبةٍ مخيفة في الانتقام، هذا كل ما يسيطر عليَّ الآن، ولكن الأهم من كل هذا.. هل ياسمين حقًا على قيد الحياة؟!

في غرفتي بالمصحة رأيتُ ياسمين مُعلَّقة من رقبتِها بحبلٍ غليظٍ في السقف، تُحرِّك قدميها يمينًا ويسارًا كمحاولةٍ أخيرة منها للتشبّث بالحياة، وأنا لا أقوى على الحركة ولا أستطيع حتى أن أقترب منها لأُنقذها، أُحاول أن أتحرك فيُمسك بي هؤلاء الأطفال الذين كانوا يضربونني في المدرسة، على رأسهم (فكري)، يبتسم لي وهو يُحرك جثة ياسمين فأستشيط غضبًا، أُقاوم ضعفي وأنهض من مكاني فينسلخ جلده ويتحول إلى خنزيرٍ بَرِّيٍّ شديد القُبح، الدماء والقمامة يمتلئ بهم جسده السمين، يقترب مني وينطحني بقرونِه، فأفتح عينيَّ وأنا ألهَثُ بعُنفٍ شديد..

الكوابيس.. الكوابيس لا تنتهي ولا تموت.

أُعِد لنفسي كوب قهوة على (السبرتاية)، أتناولها وأخلد إلى النوم لأستعد إلى يومي الأول بالمصحة.. مصحة الموت الأسود.

عزيزي ثيو،

هل البحث عن الراحةِ أشبَه بالبحثِ عن المستحيل؟!

هل مكتوبٌ لَنا أن نرتاح يومًا من كل هذا؟!

فينسنت.



فتحتُ عينيّ في الصباح لأجد عادل أسود جالسًا أمامي، تعجبتُ لرؤيته في غرفتي وتعجبتُ أكثر من نومتي العميقة في هذا المكان!

دعكتُ عينيّ لأتخلّص من وجع رأسي..

- كل دا نوم يا دكتور؟!

- هي الساعة كام؟

- الساعة 12. عم منير جالك 10 بالفطار لقاك لسه نايم.

- مش عارف إزاي نمت كل دا! أنا هبقى تحت في 5 دقايق.

- خد وقتك. فطارك على الترابيزة آهو.. افطر وابدأ مع حالاتك ونبقى نتقابل آخر اليوم.

العجيب أنّ الطعام يبدو شهيًا في مكانٍ مثل هذا!

تناولتُ الطعام في عجالة، بعدها ارتديتُ قميصًا أبيض وبنطال جينز وذهبتُ لأستقبل أول جلسة مع (أستاذ سعد).

مثلما تركتُه البارحة، ما زال يقبع في نفس المكان، يجلس في ثباتٍ ينظر إلى الحائط بعينٍ مُثقلةٍ بالهموم، ملامح وجهه غير واضحة أسفل لحيتِه الكبيرة والتي في الأغلب لم يحلقها منذ أعوامٍ طويلة.يقول ملفُّهُ أنَّه في المصحة منذ أكثر من عشر سنوات -هو في الأغلب المريض الأقدم هنا- أودَعتْه زوجتُه بالمصحة عندما حاول قتلها ذات ليلة مستخدمًا وسادة، ظل يصيح بها ويقول لها أنها ليستْ زوجتُه وأنها قامتْ بقتل زوجته لتنتحل شخصيتها.



لم يظهر عليه أي أفعال عدوانية خلال مدة إقامته بالمَصحَّة، إلَّا عندما تأتي زوجتُه لزيارته يتحول من حالة الثبات إلى شخصٍ عنيفٍ ويحاول أن يُمسك بها ليؤذيها.

ترتبط متلازمة (كابجراس) بشكلٍ شائع بمرض (ألزهايمر) أو (الخرف)؛ كلاهما يؤثر على الذاكرة ويمكن أن يُغيِّر الإحساس بالواقع، يمكن أن يُسبب المرض (انفصام الشخصية)، وخاصةً مرض (انفصام الشخصية الهلوسي)، في حالاتٍ نادرة، يُمكن أن تسبب إصابة الدماغ أيضًا متلازمة كابجراس، ويكون هذا السبب أكثر شيوعًا عندما تحدث الإصابة في الجزء الخلفي من نصف الدماغ الأيمن، حيث أن الأدمغة هي التي تُعالج التعرّف على الوجه. يمكن كذلك للأشخاص الذين يعانون من (الصرع) تجربة متلازمة كابجراس في حالاتٍ نادرة.

هناك العديد من النظريات حول أسباب المتلازمة، ويعتقد بعض الباحثين أن هذه المتلازمة ناتجة عن مشكلة داخل الدماغ، مثل الضمور أو خلل في المخ، ويعتقد البعض أنه مزيج من التغييرات الجسدية والمعرفية، والتي تساهم فيها مشاعر الانفصال في المشكلة.

وآخرون يرون أنها مشكلة في معالجة المعلومات أو خطأ في الإدراك، فتتزامن مع ذكرياتٍ تالفة أو مفقود؛ وتلك تحديدًا ما أريد أن أبحث عنها، الذكريات المفقودة لديه.

أحضرتُ مقعدًا آخر وجلست إلى جواره أتأمله قليلًا؛ من ملامحه يبدو عليه الكثير من اللا اكتراث للمحيط من حوله، إلا



أنه يتمسك بشدة بتلك الصورة في يده.

- أستاذ سعد! حضرتك سامعني؟

ولكن لا إجابة عليَّ أو رد فعل على الإطلاق.

حاولتُ أن أُمسك بالصورة التي في يده لأراها، فغضب مما فعلتُ وسقطتْ الصورة على الأرض!

بدأ يُزمجر وهو يجاهد ليصل إلى الصورة، لمحتُ بعض الكلمات على ظهر الصورة، تحديدًا كانت جملة واحدة:

"يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد ميلادك أحلى عيد".

نظر إليَّ بغضبٍ وهو يأخذ الصورة مرةً أُخرى بين يديه؛ اعتذرتُ منه وغادرتُ غرفتَه.

بداية غير مُبَشِّرة مع حالتي الأولى!

في طريقي إلى الحالة الثانية كان عم منير جالسًا أمام إحدى الزنازين يحتسي بعض الشاي، ألقيتُ عليه السلام واعتقدتُ أنه قد يساعدني..

- بقولك يا عم منير!

- أوامرك حضرتك!

- قريت جملة كدا قُلت يمكن تبقى عارف حكايتها..

- مش فاهم يا دكتور!

- "يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد..."

استوقفني وقد تهلّلتْ أساريرُه وقال:

- الله عليك يا دكتور! (محمد فوزي) وجماله، هي دي الأغاني حضرتك مش المهرجانات والقرف دا.

- دي أغنية لمحمد فوزي؟

- من أجمل أغانيه يا دكتور.. يا رب يجيبوها على الراديو النهاردا..

لمعتْ في رأسي فكرة، شكرتُه وذهبتُ لأرى حالتي الثانية، الأميرة ديانا.

عندما دخلتُ غرفتها، كانت تجلس على فراشها تنظر إلى السقف، وعندما رأتْني ابتسمتْ في هدوءٍ واعتدلتْ في جلستها.

يُشير السلوك الانتحاري إلى التعاسة العميقة، لكن ليس بالضرورة إلى الاضطراب النفسي؛ لا يتأثر كثير من الناس المتعايشين مع الاضطرابات النفسية بالسلوك الانتحاري، وليس كل الناس الذين ينتحرون لديهم اضطراب نفسي.

أسأل نفسي كثيرًا هذا السؤال، لماذا ينتحر الناس؟! لماذا يُنهي عدد كبير من الناس حياتهم بأيديهم كل عام؟!

السلوك الانتحاري هو من أكثر الأمراض النفسية تعقيدًا بسبب تفاعل الكثير من العوامل ببعضها البعض، سواء كانت عوامل اجتماعية أو ثقافية أو شخصية أو غيرها، وفي بعض الأحيان يكون الانتحار قرارٌ لحظيّ!



- صباح الخير يا ديانا، أنا يونس!

- أول مرة أقابل دكتور ما يعرَّفش نفسه بلقب (دكتور)!

شديدة الذكاء هي، يبدو هذا في عينيها، شديدة الجمال أيضًا، على يديها الكثير من (التاتو)، تحاول أن تبدو طبيعية وانسيابية في حديثها إلَّا أن بداخلها بركان ينتظر لحظة نشاطه.

- لا، أنا متواضع. قوليلي أخبارك إيه؟

- زي الفل. معاك سجاير يا يونس؟

تُحاول أن تُظهر قوتها، تريد أن تقول بأعلى صوتٍ لها أنها ليستْ طفلة، تريد أن تُظهر تمردها، تريد أن تخبر الجميع أنها أشبَه بالملاهي، تبدو جميلة من الخارج ولكن بداخلها يوجد الكثير من الألعاب المرعبة.

- سجايري في الأوضة. قوليلي سجايرك إيه وأنا أجيبهالك!

- Macbeth تشوكلت.

- عندك كام سنة يا ديانا؟

- تديني كام سنة؟

أعلم أنها في الثانية والعشرين، متفجرة الأنوثة، مَن يراها يتصورها في عقدها الثالث، هي النار في جمالها والجليد في برودتها، هي كوكب يأتيه الصيف والشتاء في نفس التوقيت.

- إيه اللي جابك المصحة هنا؟



- أهلي يا سيدي.. بيقولوا البنت ديانا اتجننتْ وبتحاول تموّت نفسها!

- بس اللي شايفها قدامي دلوقتي مش واحدة مجنونة.. بالعكس!

- حكايتي شبه الأفلام العربي اللي طول عمرنا بنتّريق عليها وإن قد إيه الأفلام دي فيها مبالغة.

- حابب أسمع!

- لما تجيب السجاير هبقى ساعتها أقرر أحكيلك ولا لأ.

أحببتُ شخصيتَها، تبدو كامرأة ناضجة تمامًا من الخارج، ولكني أعلم أن بداخلها طفلة في السابعة من العمر، ترتدي فستانًا مليئًا بالورود، في يدها عروستها ولا تعطي أهمية للأشياء المظلمة حولنا.

ما قصتكِ يا ديانا؟!

زيارتي لحالتي الثالثة (صلاح)، لم تختلف كثيرًا عن زيارتي للسيد سعد أو ديانا، فشلتُ في التعامل معه.

كان يقف أمام باب الزنزانة عندما دخلتُ عليه، يصهل بشكلٍ هيستيري، يضرب بقدميه في الأرض متحفزًا أو غاضبًا. حاولتُ أن أقترب منه بحذرٍ إلَّا أن صوت صهيله أربكني وألجمني، فأخذتُ عِدة خطواتٍ إلى الوراء تحسبًا إلى أي رد فعلٍ منه. أدركتُ أنني يجب أن أدرس نفسية الخيول حتى أستطيع أن أُعالجه، ولكن.. لا أعتقد أن ما يُسيطر عليه في تلك اللحظة هو شعور الغضب!

قمتُ بخلع قميصي وبحذرٍ شديد وضعتُه على جسده العاري، هدأ قليلًا وهو يراني أُساعده في ارتداء القميص، هزَّ رأسَه بامتنانٍ بعدما انتهيتُ، علمتُ منذ اللحظة الأولى أنه يشعر بالبرد. لم أُرِد أن أُطيل جلستي الأولى معه، ما حدث الآن يكفي لترك انطباعٍ جيد بيننا.

ابتسمتُ له وغادرتُ غرفتَه.

في طريقي إلى غرفتي لأحصل على قميصٍ آخر لنفسي شعرتُ بشخصٍ ما يتتبعني، نظرتُ ورائي خلسة لأجد عم منير يراقبني من مسافةٍ قريبة، ابتسمتُ له وناديتُ عليه:

- إوعى تكون مُعجب بيا يا عم منير!

- الله يجازي شيطانك حضرتك! لا، أنا بتطمن إنك مش محتاج أي حاجة.. مش عايزني أحضَّرلك الأكل؟

- لا، مش جعان دلوقتي. تعالى انت معايا أعزمك على فنجال قهوة في أوضتي!

دَلَفنا إلى الغرفة سويًا، جلس هو علي استحياءٍ واتجهتُ أنا إلى السبرتاية، بدأتُ في إشعالها حتى شعرتُ بيدٍ تُحاوطني من الخلف!

نظرتُ ورائي فوجدتُ (حنين) تبتسم لي في شر!

تراجعتُ مُسرعًا فسقطتْ السبرتاية. المفاجأة الأكبر أن (عصفورة) ظهرتْ أيضًا من خلف حنين!

الصدمة شلّتني تمامًا، والأسوأ أن عيونهما كانت غريبة، تحولتْ



عيناهما هما الاثنين إلى اللون الأبيض، يشبهان الأشباح التي كنتُ أراها في منامي عندما كنتُ طفلًا، يقتربان مني هما الاثنين ببطءٍ مُخيف وتعتَلي وجوههم ابتسامةً تمتص مُسببات الحياة. حاولتُ الابتعاد عنهم إلّا أنني تعثرتُ بالكُرسيّ وسقطتُ على الأرض مغشيًا عليَّ...

- دكتور يونس.. اصحى يا دكتور يونس!

نظرت حولي لأجد نفسي بغرفتي في المصحة، فوق رأسي عم منير يحاول إيقاظي، بينما جلس الدكتور أسود على الكُرسيّ ينظر إليَّ باهتمام..

- إيه اللي حصل؟

- حضرتك قُمت تعملنا القهوة واتكعبلت على دماغك أغمى عليك!

وجهتُ نظري إلى الدكتور أسود الذي ابتسم وقال:

- اجمد كدا يا دكتور.. دا إحنا لسه بنسَخَّن!

- مش عارف إزاي دا حصل.. بس أنا تمام. كنت هقول أصلًا لعَم منير يفرَّجني على باقي الأُوَض في المصحة بعد القهوة.. شُفت يافطة أول ما جيت مكتوب عليها (غرفة العزل وغرفة التأمل)!

- غُرفة العزل بقالها أكتر من سنة محتاجة صيانة فمش بنستعملها.. وبالنسبة لغُرفة التأمل أنا مش بس هخليك تشوفها، وهخليك تجرَّبها كمان.. اختراع مدهش..



بعدها قام من مكانه وأشار إلى العم منير أن يتبعه، ثم أكمل كلامه وهو خارج من الغرفة:

- النهاردا ارتاح.. عم منير دقايق وهيجيبلك العَشا.

في الصباح، كنتُ في طريقي إلى أستاذ سعد.

اليوم كان نائمًا على فراشِه ووجهه إلى الحائط. كنتُ قد أعددتُ الخطة من البارحة، جلستُ على الكرسي بجانبِه وأخرجتُ هاتفي من جيبي، ضغط على play فانبعث صوتُ (محمد فوزي) الحنون يقول:

"يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد ميلادك أحلى عيد..

يوم ما اتولدتي البدر قال: يا حُسنها!

أغيب أنا وهي تنوّر مطرحي".

كنتُ متأكدًا من نجاح الفكرة، فور أن بدأ في الاستماع إلى الأغنية حتى قام من مكانه ونظر إليَّ وعيونه مُمتلئة بالدموع، مد يده إليَّ بمعنى أن أُعطيه هاتفي، ترددتُ قليلًا ولكن نظرة التوَسل في عيونِه أرغمتْني على أن أُعطيه الهاتف. أمسك به والأغنية ما زالت تتغنَّى، قرَّب الهاتف من أُذنيه -في الأغلب يواجه صعوبة في السمع- أشعر بشفَتيه تتحرك مُرددة أنغام الأغنية بصوتٍ واهِن، صوت يليق بشخصٍ لم تخرج كلمة واحدة منه منذ أكثر من عشرة أعوام!

فور أن انتهتْ الأغنية وجدتُه يُشير بإصبعه إلى الهاتف كأنَّه



يُخبرني مثلما يفعل الأطفال أنَّه يُريدها مرةً أُخرى؛ ابتسمتُ له ونفذتُ طلبَه. بينما هو يستمع إلى الأغنية ناديتُ عم منير والذي تفاجأ من استجابة سعد للأغنية..

- حضرتك أنا أول مرة أشوف أستاذ سعد فاتح – لا مؤاخذة- بوقه إلا وهو بيا كل!

أخرجتُ من جيبي بعض المال وأعطيتُه إليه:

- عايزك تسيب اللي وراك وتروح تشتري من أي حتة كاسيت من اللي بيشغل سيديهات.. وتشتريلي سي دي عليه أغاني محمد فوزي.. بسرعة!

- طب أستأذن من الدكتور أسود أو الدكتور أنس!

دسستُ في جيبِه خمسين جنيهًا:

- لا، ما توجعش دماغهم.. انت سريع يا عم منير مش هتاخد وقت. وآه، هاتلي علبتين سجاير **macbeth** شيكولاتة.. أكتبلك اسمها في ورقة؟

- عيب يا دكتور.. ماكبس السودا دي.. عارفها عارفها.

فور أن غاب منير عن الأنظار حتى بدأتُ أتفقَّد جميع الزنازين باحثًا عن ياسمين، وكلما فتحتُ واحدة أرى الموت في أعيُن المرضى، نتبادل النظرات دون أن نقول أي شيء.

أصبحتُ أعرف زملائي المرضى النفسيين حق المعرفة، زملاء المصحّات أصحاب الهلاوس والذهان وغيرها من الأمراض



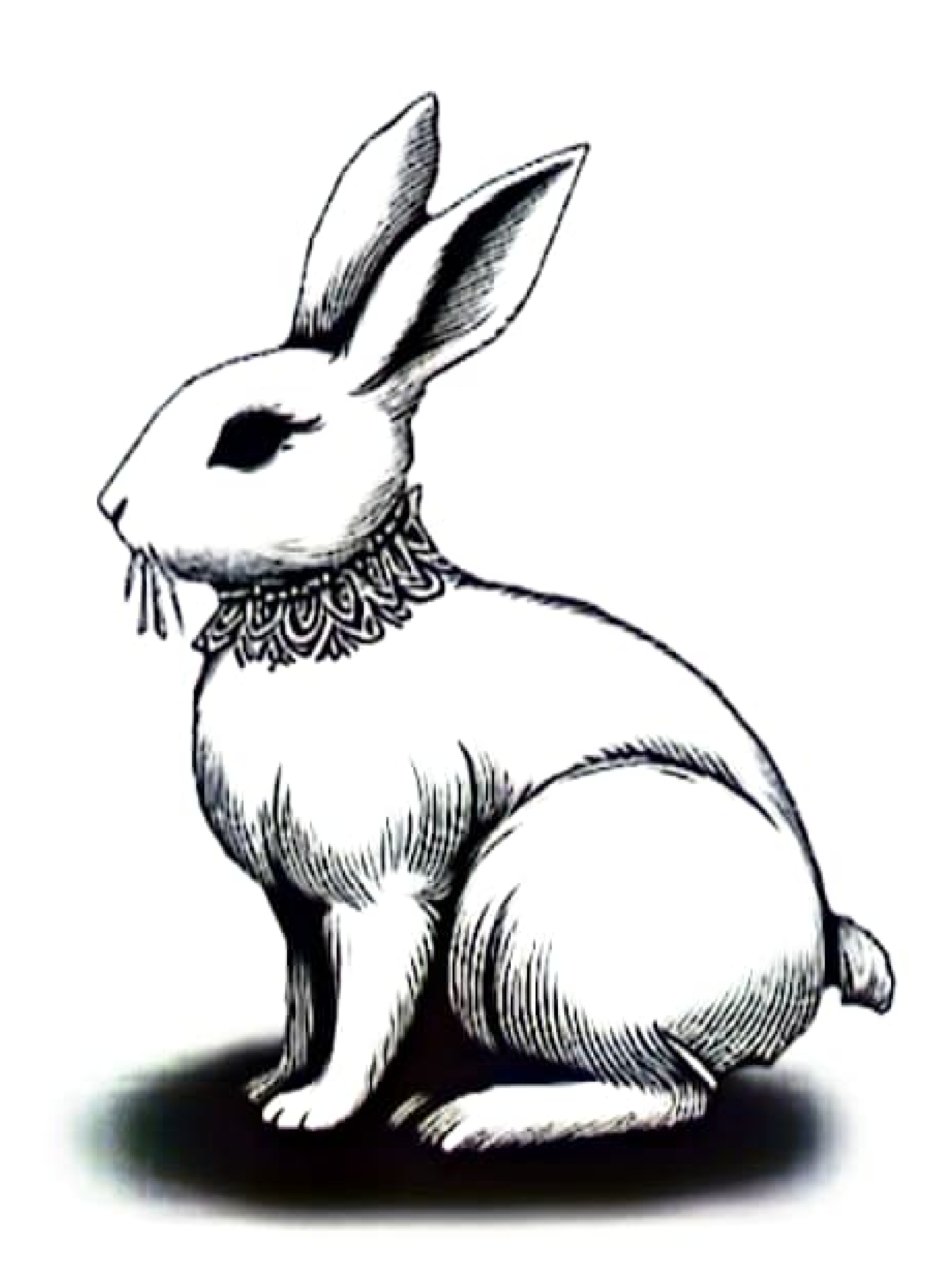
النفسية، أعرفهم من النظرة الأولى، بعيونهم الهامدة، أشخاص ضبابيون لا يعرفون النور والضياء، أصدقائي الذين يقضون حياتهم بين النوم والهموم، هؤلاء مَن اقتربوا من حافة الموت أكثر من اللازم وفي النهاية القرار متروكٌ لهم؛ أن يستعيدوا حياتهم أو يقفزوا !

أُفتِّشُ عنها ولا أفلح في إيجادها حتى الآن؛ تلك المصحة من المؤكد أنّ بها غُرف سِرية!



الفصل الخامس

الجنين





نظرتُ حولي وإذ بالبَهو يتحول لونه إلى الأخضر، تخرج من الأرض المئات من ورود عباد الشمس، يلتفون حولي فأفشل في الحركة، ينبعث أمامي من باطن الظلام (فينسنت)، بقميصِه البالي وأُذنِه الواحدة، يتربَّع أمامي ويبدأ في رسمي وأنا مُحاط بتلك الورود، أكاد أختنق ولكنه لا يهتم سوى برسمتِه اللعينة، أُجاهد لألتقط أنفاسي بينما هو يدير الرسمة ليُريَني إياها، كانت رسمة لي في طفولتي، أجلس على فراشي وأُمسك بين يدي قناع أرنب يسيل منه الدماء!

- حلوة الرسمة؟!

يسألني (فان جوخ) ولا أُجيبه.

الآن، أرى روحي تغادر جسدي بعدما تم خَنقي تمامًا من تلك الورود اللعينة، أتحرَّك في الهواء بلا قيود أخيرًا، ولكن.. كيف للروح أن تشعر بكل هذا الألم؟!

فتحتُ عيني لأجدني ما زلتُ أمام الأستاذ سعد والذي ما زال يُشير إلى الهاتف لكي يستمع إلى الأغنية مرة أخرى. بدأ محمد فوزي في الغناء مرة أخرى، بينما جلستُ أنا بلا حراك أحاول أن أستَشِف ما يحدث لي.

لم يتأخر منير، عاد بعد ساعةٍ تقريبًا معه كل ما أريد، أعطيتُه خمسين جنيهًا أخرى امتنانًا لسرعة استجابته لطلبي.

وضعتُ مُشغل السي دي فوق الطاولة وفور أن بدأ محمد فوزي في الغناء حتى رأيتُ سعد يقوم من مكانه ويتحرك في الغرفة



كَمَن يبحث عن شيءٍ ما، ظل يبحث طويلًا حتى عثر على ضالتِه المنشودة، قطعة متناهية الصغر من الطباشير، أخذها بين يديه وبيدٍ مُتلجلِجة بدأ في رسم شيءٍ ما على الحائط، ظللتُ أُراقبه باهتمام حتى توقف عن الرسم. كانت رسمة بسيطة لشباكٍ مفتوح على مصراعيه، سعد يستخدم خياله ليشعر بأنه أفضل، سعد ما زال متمسكًا بشيءٍ ما، بصورةٍ لا يتركها من يده لشخصٍ قد يكون ما عاد موجود في تلك الحياة!

- كل يوم هجيلك الصبح نسمع مع بعض محمد فوزي، ولو بدأت تحكيلي هسيبلك الكاسيت دا تسمع فيه محمد فوزي اليوم كله.

حدقة عينيه مُعلقة بي، لقد حصلتُ على اهتمامه أخيرًا. فأشرتُ بإصبعي إلى رسمتِه على الحائط وقلتُ:

- ولو بقينا صحاب هخليك تطلع تمشّى فوق وتشوف الشمس!

أغلقتُ الكاسيت وأخذتُه بين يدي، وتركتُ الأستاذ سعد بعدما تأكدتُ تمامًا أنِّي سأحصل على ما أُريد في زيارتي القادمة له.

كان منير في انتظاري قبل دخولي لديانا ليُخبرني أن الدكتور أسود يريدني في مكتبه، صعدتُ الدرج إلى مكتبِه حيث كان ينتظرني بجانب تمثال فرويد.

- طمني عليك يا دكتور!

- الحمد لله.. شوية تعب بيجي ويروح.

- المهم تاكل كويس وتنام كويس.. 3 حالات بس في اليوم



يخلوك عندك وقت كتير للنوم والاسترخاء.

اقترب مني كأنه يكشف على عيني، مَطَّ شفتيه باستياءٍ ثم قال:

- تحت عينيك أسود.. سجاير وإرهاق. مش بتخاف على نفسك انت يا دكتور..

لم أشعر بالارتياح لاقترابه مني. تراجع خطوتين إلى الخلف متظاهراً بالاهتمام مرة أخرى بتمثال فرويد..

- عمرك جرَّبت تدخل غرفة التأمل يا دكتور؟

- إيه هي غرفة التأمل؟

- تعالى معايا..

- طب والحالات؟!

- يستنوا.. الدكتور محتاج يبقى كويس عشان العيانين يبقوا كويسين.

تبعتهُ إلى الدور السفلي، باب عملاق كتب بجانبه (غرفة التأمل)، دَلفنا سويًا إلى غرفةٍ عملاقة، خاوية تمامًا باستثناء جهاز غريب أشبه بخزّان المياه، إلّا أنه شفاف اللون، متصل ببعض الخراطيم وجهاز تحكم. أول شيء اكتشفتهُ بالغرفة هو هدوءها العجيب، لا صوت على الإطلاق، هدوء الغرفة مُربك، بدأتُ أستمع إلى أشياءٍ لم أتخيل في يوم من الأيام أن بإمكاني سماعها؛ صوت نبض قلبي أسمعه بوضوح، أصوات معدتي وحتى صوت الدماء تجري في شراييني، وكأن الضجيج يأتي لأول مرة



من الداخل وليس بالخارج!

- دي زي غرف جلسات الحياة السابقة؟

- لا لا.. مش سكتي خالص الحاجات دي ولا برضه ليها علاقة بالـ (شاكرا) رغم إن الأفكار قريبة من بعض. ببساطة أنا هخليك ترجع للبداية..

- البداية!!

- شايف الخزان دا؟ دا أعظم اختراع عمله والدي الدكتور نجيب أسود، اسمه (الجنين).. ببساطة الشخص بيدخل جوا الخزان دا، بيتركبله خرطوم أكسجين للتنفس، بعد دقايق الحوض ده بيتملى على آخره بالمياه، وكأن الشخص رجع جوا الرحم، حاجة شبيهة بفكرة الكيس الامينوسي. جوا الجهاز العظيم دا حضرتك بتمر بـ 9 مراحل زي ما الجنين بيحتاج 9 شهور عشان ينمو، 9 مراحل بتنشطلك الذاكرة والإدراك، 9 مراحل بتخليك تدرك وتفتكر أسرارك؛ في المرحلة السابعة المياه بتبدأ تقل، في المرحلة التاسعة بتبقى شفت حياتك كلها زي فيلم سينما وانت المُتفرج الوحيد. تجربة هتريحك من وجع دماغك.

كلام كثير لم أستوعبه أو أُصدقه.

نظرتُ إلى جهاز التحكم وسألتُه عنه، فأجاب:

- دا جهاز بعرف منه إحداثياتك، نبض القلب وضغط الدم والكهربا في الجسم، عشان لو أي حاجة خرجت عن السيطرة أقدر أساعد الحالة في الوقت المناسب.. يلا بينا؟!



- تفتكر الاختراع دا حقيقي؟

- جرَّب وشوف بنفسك.. هسيب الحكم ليك!

متلازمة الذاكرة الكاذبة..

في ليلةٍ كان من المفترض أن تكون رومانسية، دعا الشاب الأمريكي (ستيف تايتس) خطيبته إلى العشاء في أحد مطاعم ولاية واشنطن. استقَل الاثنان سيارتَه، التي كانت لسوء حظه تشبه سيارة أحد المتهمين في قضية اغتصاب فتاة في الحي. أوقفتْ الشرطة ستيف وخطيبته ووَجَّه إليهما الضابط بعض الأسئلة، ولسوء حظ ستيف للمرة الثانية كانت ملامح وجهه تشبه أوصاف المغتصِب كثيرًا، فوضعته الشرطة رهن الاعتقال.

في اليوم التالي، عُرضتْ صورة ستيف على الفتاة ضحية الاغتصاب فأظهرتْ شكًا في أنه الجاني، لكنه كان الأقرب في الشكل من بين كل المشتبه بهم، فوُجِّه الاتهام إليه. إلى هنا تبدو القصة عادية، لكن ما قلب الموازين أن الفتاة أكدتْ في قاعة المحكمة بكل ثقة أن ستيف هو من اغتصبها. لم تكن تكذب، بل كانت واثقة فعلًا.

صرخ ستيف ببراءته لكن أحدًا لم يسمع، سوى خطيبته التي أوصلتْ قصته إلى صحفي في قسم التحقيقات بجريدة محلية. تابع الصحفي القضية حتى وصل إلى الفاعل الحقيقي، الذي اعترف كذلك بأنه نفَّذ 50 جريمة اغتصاب غيرها، لكن هذا كان بعد أن قضى ستيف سنة مريرة في السجن، وبعد أن طُرِد من وظيفته التي عمل جاهدًا كي يصل إليها، وبعد أن انهارتْ خطيبته



وفقدتْ أملها، وبعد أن صارتْ حالته النفسية سيئة للغاية بسبب الظلم الذي وقع عليه. خرج ستيف تايتس لكنه رفض أن ينسى الماضي ويبدأ حياته من جديد، فباع كل ما يملك وقرر أن يقاضي الشرطة، يقاضي الحي، يقاضي الفتاة، يقاضي كل من سلب منه حريته وحياته. وبينما تنفجر عروقه بالحماس، استيقظ في صبيحة المحاكمة حازمًا أمره وأوراقه، فاليوم سيستعيد حقه في أسوأ سنة عاشها، لكنه شعر بألمٍ شديد ولم يستطع حتى أن يطلب مساعدة. أسقطتْه أزمة قلبية جثة هامدة فوق أوراق قضيتِه، بسبب الضغوط العصبية والنفسية التي لم يستطع تحملها، أو بالأحرى مات بسبب ذكرى زائفة.

الذاكرة الزائفة حالة نفسية يتذكر فيها الشخص أحداثًا لم تقع فعلًا.

أبسط مثال يمكن أن نضربه حين تعتقد أنك تركتَ شيئًا مثل قلمك على المنضدة، وتُقسم أنك فعلت، بينما هو لا يزال في جيبك.

أنت لم تكذب، لكنك نطقتَ كذبًا، فذاكرتك صوّرت لك هذا الحدث فعلًا، وربما رأيتَ نفسك وأنت تُخرج القلم من جيبك وتكتب به شيئًا ثم تضعه على المنضدة وترحل، لكن هذا لم يحدث، بل صنعتْه ذاكرتك في محاولة لملْء الفراغات الموجودة فيها، فاصطنعتْ ذكريات أُخرى أكملتْ بها القصة بناءً على خبرة سابقة أو كلام سمعته، أو ربما بالتخيل فقط. هذا ما حدث مع ستيف تايتس، فالفتاة لم تكذب، بل وقعتْ ضحية ذكرى زائفة.



- إيه يا دكتور يونس.. روحت فين؟!

- إيه رأيك في الذكريات الكدابة يا دكتور؟

- مش بقتنع بإن فيه حاجة اسمها ذكريات كدابة.. الذكريات شيء مُخيف طبعًا مافيش جدال على دا.. بس الذكريات في رأيي دايمًا بتاخد صفك، الذكريات مش بتبقى عدو ليك، أحيانًا بتتحكم في سلوكك وانفعالاتك بس مش هتبقى سبب لهلاكك. يلا عشان أثبتلك خرطوم الأكسجين.. بعد التجربة قولي غيرت رأيك عن الذكريات ولا لأ.

كان الماء دافئًا، أكثر ما أرعبني فكرة وجودي في حوضٍ أو خزانٍ مُغلق من الخارج وأنا عالِق بداخله كسَمكةٍ فقدتْ القدرة على العوم في محيطٍ عملاق.

أغلق دكتور أسود نور الغرفة فتحوّل لون الغرفة إلى لونٍ بنفسجي غريب، أشار إليَّ من خارج الخزان بأن أُغلق عينيّ ففعلتُ، بدأتُ في التنفس بشكلٍ أفضل وتركتُ لروحي العنان، كنتُ بالفعل في تلك اللحظة أُشبِه الجنين، أطفو في ماء السلوى، لا أمتلك نفعًا أو ضرًا لنفسي، فقط جسد مُعلّق في هذا الهدوء العجيب من الماء الدافئ، أشتَم رائحة جميلة مُسكِرة رغم كون أنبوب الأكسجين مُثبَّتٌ بوجهي، لا أسمع الآن سوى دقات قلبي.

الآن، أنا في ثباتٍ عجيب.. أسمع أصواتًا منبعثة من داخلي، وكأن جسدي يعزف مقطوعة موسيقية عازفيها هم أعضاء جسدي، فتحتُ عيني فوجدتني أقف في ملعب المدرسة، يبدو

أصغر قليلًا الآن نظرًا لتقدُمي في العمر. أنظر حولي فلا أرى أحدًا من التلاميذ إلا طفل وحيد يجلس في أحد أركان الملعب يبكي والدماء تسيل من أنفه، أقترب منه لأجده أنا، يونس الطفل الوحيد الذي يكرهه الجميع، أُحاول أن أُربّتِ عليه ولكنني لا أقوى على لمسه!

نظر إليَّ بكُرهٍ شديدٍ وقال:

- انت السبب!

لم أفهم، كيف أكون سببًا في شيء كهذا؟!

لقد حاولتُ بكل الطرق ألَّا أوذي نفسي مع مرور السنوات، ولكن الأذى كان دومًا الرفيق في كل خطواتي، وكأنني خُلقتُ من اللا انتماء، غريب في عالمٍ يرفضني، غريب في عالمٍ يكرهني، أبحث طوال حياتي عن تلك الثغرة التي تترسب منها كوابيس حياتي!

قام يونس الطفل من مكانه، وفور أن تحرك حتى تبدَّدَ المشهد وكأن الظلام ابتلعني، لأجد نفسي في مكانٍ آخر لا أعرفه، في الواقع أنا الآن شخصٌ آخر، أنظر إلى انعكاس وجهي في بركة المياه المتكوِّنة بأرض غرفتي نتيجة ثَقبٍ في السقف؛ وجهي هزيل، ملابسي بالية ولون شعري أحمر، الغرفة مُمتلئة بلوحاتٍ بيضاء ولوحاتٍ نصف مرسومة، أعرف تلك اللوحات جيدًا!

أنا فان جوخ!!

أسمع صوتًا من خارج غرفتي لسيدة تقول:



- "سيعيش أكثر لو نجح في الحب".

نحن الآن في عام 1874، أقبع في غرفةٍ حقيرة بإحدى الحانات بعدما تم طردي من المنزل الذي كنتُ أعيش فيه بسبب اعترافي بحبي لـ (أورسولا)ز

منذ شهرٍ رفضتْني الفتاة الجميلة (أورسولا لوير) ابنة صاحبة المنزل الذي كنتُ أُقيم فيه في لندن، فبعد إخفائي لمشاعري طوال شهور إقامتي في المنزل، انفجرتُ ذات صباح مُعلنًا حبي للسيدة الشابة قائلًا لها:

- "أمس، فكرتُ حين آويتُ إلى سريري في اسمٍ يصلح لكِ. لقد دعوتكِ (ملاك)".

ضحكتْ من قلبها صائحة، لم أفهم إن كان هذا استهزاء أم سعادة!

- "ملاك؟! ينبغي أن أذهب وأروي ذلك لأُمي".

نظرتُ إليها، أنا نادرًا ما أهتم بامرأة، لقد نشأتُ في بيتٍ مُتزمِّت، ولم أُحب فتاةً من قبل، ولم يكن إعجابي بأورسولا مجرد نزوة أو شهوة، فأنا أحب للمرة الأولى، أنا حتى لم أكن أعرف تحديدًا ما هو الحب من قبل!

نظرتْ إليَّ بعينين متعجبتين وقالت أنها لم تعد تفهمني ولا تفهم نظراتي لها، تلعثمتُ وقتها، لم يقوَ لساني أن يبوح لها في تلك اللحظة بشعوري.

- "فينسنت.. ما الذي تحاول أن تقوله لي على وجه التحديد؟".

- "إنني أُحاول أن أُخبركِ يا أورسولا شيئًا تعرفينه مقدمًا، وذلك أنني أُحبكِ من كل قلبي، ولن أكون سعيدًا إلا إذا أصبحتِ زوجتي".

- "زوجتك؟ إنه لأمر غريب أنك لا تعرف أنني مخطوبة منذ عام".

مَرَّ على الاعتراف أسبوعان، وذات صباح نزلتُ إلى غرفة الاستقبال، كانت أورسولا وأمها جالستين تتبادلان النظرات. قالت الأم وهي تراني أتجه إلى باب الخروج:

- "نحن نرى أنه من الأفضل أن تسكن في مكانٍ آخر".

يدي تتشقق، أشعر بنوبةٍ من الغضب تسحقني، أتفتتُ إلى قطعٍ صغيرة لأعود مرة أخرى إلى جسدي، طفلٌ يجلس على فراشه بغُرفتي، أمامي تجلس أمي والدموع في عينيها الجميلتين، بينما يقف أبي بالقرب مني والغضب يتطاير من عينه..

- لو فضلت كل شوية تقول لأمك إنك بتشوف عفريت هضربك!

- بس أنا مش بكذب يا بابا.. والله مش بكذب!

فوق فراشي كُتب كثيرة لقصص الأطفال والتي كانت ترويهم لي أمي في طفولتي، جذب أبي أحد الكتب وبدأ في تمزيقِه بعنف:

- لو الحواديت دي اللي بتخليك تشوف عفاريت هفضل أعمل



كدا في كل كُتبك لحد ما تبقى راجل!

أنظر إلى عين أمي لَعَلّي أجد فيهما مخرجًا وأمانًا، ولكنها ضعيفة أمامه، لا أعلم تحديدًا هو ضعف الخوف أم ضعف الحب!

أغوص في عينيها لأعود إلى العام 1880.

عُدتُ مرة أخرى إلى جسد فينسنت فان جوخ، لم أكن أدري أن الأقدار تخبّئ لي حكاية حب جديدة، حكاية ستأخذ من روحي أكثر وأكثر.

كانت الحبيبة هذه المرة إحدى بنات خالي، اسمها (كاي سترايكر)، جذابة إلى درجة كبيرة، ذات شعر أشقر وعينين زرقاوتين واسعتين، تفيض قسمات وجهها بمسحةٍ من الحزن، جاءت إلى بيتنا مع ابنها الصغير لتستريح بعض الوقت بعد وفاة زوجها. ما إن رأيتُها حتى أخبرتُها أنّي سأرسمُها.

- "إن (رامبرانت) لو كان موجودًا لقرر أن يرسمكِ فورًا".

- "وهل (رامبرانت) كان يهوى رسم النساء الدميمات؟"

- "بل يرسم النساء الجميلات اللاتي فيهنّ مسحة من الحزن تصهر أرواحهنّ".

شكيتُ لأُمي صَد (كاي) لي، كان في ذهني أن أرسم لها صورة المرأة التي أُحبها في أورسولا، لقد أيقنتُ أن كل ما أريده كان حبًا تمتلِئ به حياتي الموحشة، حُبًا يوهِبني الحياة وسط العزلة.

- "حين رأيتكِ فقدتُ توازني يا كاي!"



- "لا أريد أن تكون حياتي رهنًا لحبٍ آخر!"

- "سوف نبدأ حياةً جديدةً بعيدًا عن هنا، تحت سماءٍ أكثر زُرقة".

- كلا، فأنا جربتُ الحب مرة واحدة وكاد أن يقتلني، وسواء كنتُ سأرتبط برجلٍ آخر، أم سأموت هكذا، فإنني لا أُفكر فيكَ زوجًا".

كانت هذه الكلمات أشبَه بضربةٍ قاضية وجهتها إلى رجلٍ مذهول.

قررتْ كاي أن تهرب من مطارداتي لها، فعادتْ إلى بيت أبيها في أمستردام، ظللتُ أُلاحقها بخطاباتي كاتبًا لها:

"ما معنى أن يُفكر إنسان بشخصٍ آخر؟ معنى هذا أن لا ينساه، إذ لا حياة مُمكنة مع النسيان. ثمَّة أشياءُ كثيرة تُعيد صورتكِ إليَّ، والتفكير فيكِ لا يفيد شيئًا آخر غير أن أراكِ. أنا ببساطة لا أستطيع العيش دون أن أُفكِّر فيكِ".

وبعد فترة من التفكير قررت أخيرًا أن أذهب لأراها وأن أتحدث إلى خالي عن رغبتي في الزواج منها.

استقبلني بجفاءٍ شديد وقال:

- "فنسنت، إنك تُسبب الكثير من المتاعب لابنتي!"

- دعني أراها ولو لمرةٍ واحدة!"

- إنها لا تريد أن تُكلمك".



- اصغ إليَّ أرجوك، إنني أُحبها بجنون، لا تكن بالغ القسوة عليَّ، أنا أعرف أنني لم أُوَفَّق في حياتي، لكن دعها تمنحني فرصةً واحدة، سأنجح حتمًا، فرصة واحدة فقط.. هذا كل ما أطلبه".

- "يا لك من ضعيف!".

عندئذٍ قفزتُ ومددتُ ذراعي إلى الشمعدان المُشتعل على المنضدة وبسطتُ يدي على اللهب المتّقِد، وقلتُ للخال:

- "سأُريك كيف أنِّي لستُ ضعيفًا، هذه يدي، لن أرفعها عن اللهب حتى أرى كاي".

نظر إليَّ بإشفاقٍ شديدٍ وقال لي:

- "إلى متى سيدوم هذا البؤس؟!"

شرعتُ في البكاء، أخذني الخال بين ذراعيه، فجأة أصبحتُ في مكانٍ آخر، أبكي بين ذراعيّ طبيبتي، الدكتورة رحمة، كنت وقتها في الرابعة عشرة تقريبًا..

- خلاص، عشان خاطري ما تعيطش!

- بقيت حاسس إن مافيش حد يحبني..

- أنا هتكلم مع بابا وماما.. أوعدك!

هدأتُ قليلًا بعد حديثي معها، أرى فيها الأم التي تمنيتُها. أخرجتْ من حقيبتها قالب من الشوكولاتة وناولتْني إياه بابتسامتِها المُشرقة.



- دي شوكولاتة بالقهوة.. هدية مني ليك.

- أنا عايز لما أكبر أبقى زي حضرتك كدا وأساعد الناس!

- مش انت قولتلي قبل كدا إنك عايز تبقى ظابط؟

ابتسمتْ واقتربتْ مني ووضعتْ يدها فوق رأسي بحنانٍ وقالت:

- انت ذكي جدًا يا يونس.. إحنا بقالنا 4 سنين صحاب وبتجيلي العيادة.. اللي أقدر أقولهولك إنك تقدر تبقى أي حاجة انت عايزها.. تقدر تبقى ظابط وتقدر تبقى دكتور نفسي ورسّام كمان لو عايز!

وضعتُ يدها على عيوني وقالت:

- خلّي خيالك هو سلاحك من هنا ورايح يا يونس.. خيالك هيخليك تبقى الشخص اللي انت عايز تبقاه.. خلي خيالك سلاحك زي ما زيتون بيحميك.. فهمتني؟

مرةً أُخرى ابتلعني الظلام..

أنا الآن في الخامسة عشر، في بيت أهلي..

أشخاص كثيرون يرتدون ملابس سوداء، قرآن ينبعث في أركان البيت، أمي تبكي بحُرقةٍ بينما يارا تحاول أن تهدئها. أرى نفسي أقترب من أمي لأطمئن عليها، ولكن فور أن رأتْني حتى بدأتْ في الصراخ:

- ابعدوا يونس عني.. ابعدوه مش عايزة أشوفه!

هَمهَمات وكلام مُختلط لا أسمعه جيدًا، جملة واحدة فقط تمكنتُ من سماعها جيدًا:

"بيقولوا يونس هو اللي قتل أبوه!".

أنا؟!

ولكن كيف؟!

كيف لي أن أقتل أبي؟!

نعم، أنا لم أكن أُحبه، نعم كان يعاملني كالجرذان، ولكن لماذا أقتله؟ وكيف؟!

أشعر بالاختناق، أشعر بانخفاض نسبة الهواء بداخلي، أشعر بالموت يبتسم، أفتح عينيّ لأرى حنين تسبح بجانبي في الحوض الكبير، تنزع عني قناع الهواء لأُفارق الحياة في الحال.

أشعر بيدٍ تُخرجني من المياه، أشعر بيدٍ تساعدني على ارتداء ملابسي، أسمع صوتًا ينادي اسمي:

يونس.. دكتور يونس!

لا أعلم كم مر من الوقت تحديدًا، ولكني حينما استيقظتُ وجدتُني في غرفتي بمنزلي في أسوان، ملابسي مُبتَلَّة قليلًا وعصفورة تنظر إليَّ بقلق، بينما الجدة ونجي تُتَمتِم ببعض الأدعية والآيات. حركتُ يدي بصعوبة لألمس يدها، ابتسمتْ وهي تُقبّل يدي. أَنظر حولي بتعجب، أجاهد نفسي لأقوم من مكاني ولكنها منعتْني برفق:



- ارتاح يا حبيبي.. دا كان شكله كابوس!

- كابوس إيه؟ أنا إزاي هنا؟ أنا المفروض في المصحة!

فجأة تبدَّل وجه عصفورة وتبدلتْ الغرفة، عدتُ مرة أخرى إلى المصحة، يبتسم لي الدكتور أسود:

- حمد الله على السلامة يا يونس!

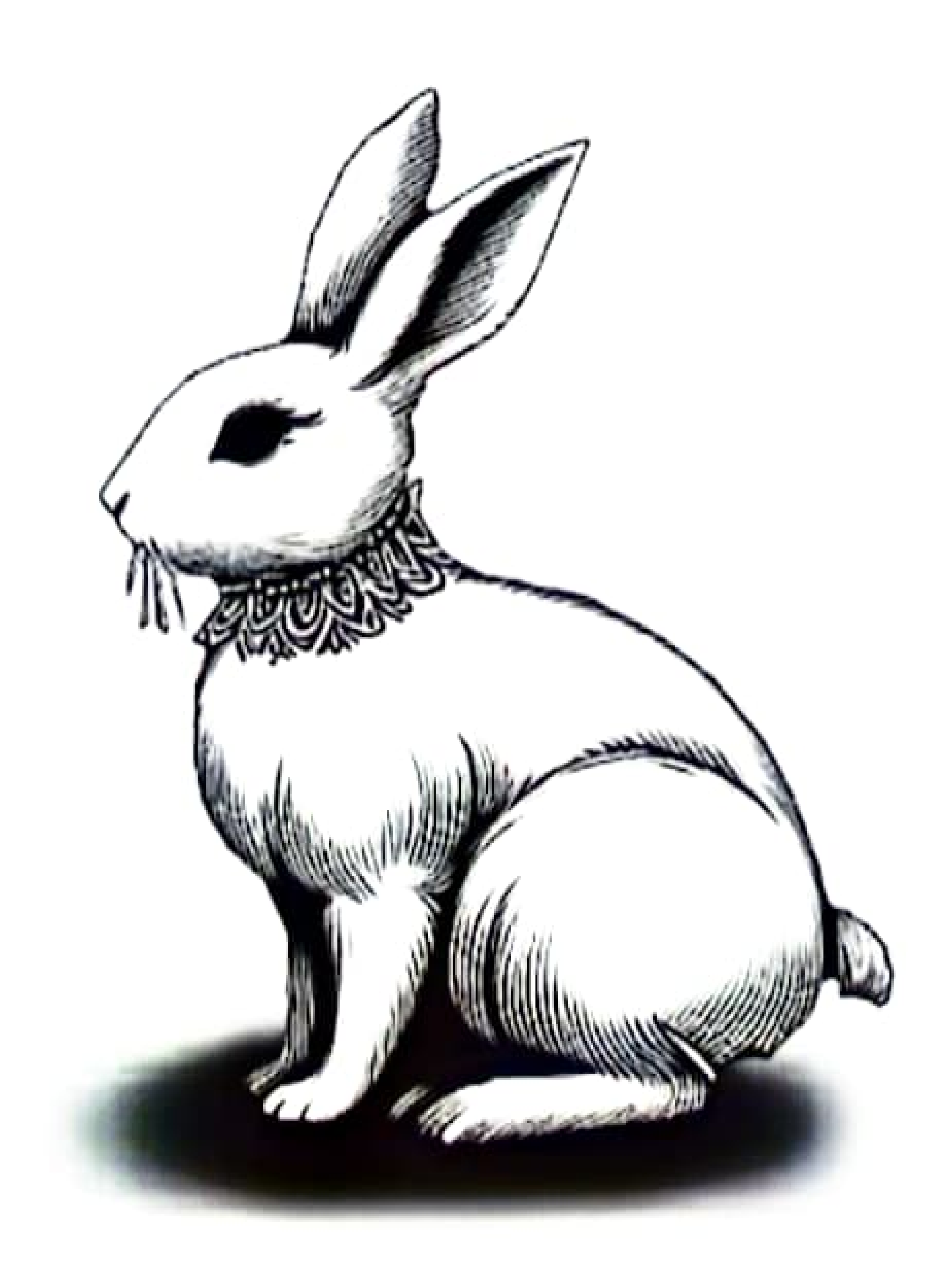
- إيه كل اللي أنا شوفته دا؟

- شكلها كانت تجربة صعبة! هي أول مرة دايمًا بتبقى كدا. انت محتاج ترتاح والصبح احكيلي اللي حصل.



الفصل السادس

الذاكرة الكاذبة





استيقظتُ في صباح اليوم التالي..

على الطاولة كان الإفطار موضوعًا إلى جانبه كوب من عصير البرتقال وعلبتين السجائر الماكبث التي طلبتهما لديانا بالأمس، ارتديتُ ملابسي وبينما أتناول طعامي عاد إلى رأسي كل ما حدث في غرفة التأمل؛ رحلة عجيبة لا أعلم كم استغرقتْ. نظرتُ مرةً أخرى إلى طعامي وتذكرتُ عم منير، هو الوحيد الذي قد يساعدني لأعرف مكان ياسمين، هو الوحيد الذي قد أجعله في صفي!

ولكن، ماذا إذا لم يوافق؟!

ماذا إذا كان ولاؤه لعائلة أسود؟! وقتها سينفضح كل شيء!

يجب أن أجد حلًّا آخر، يجب أن أُجاريهم في كل ما يحدث حتى أستطيع أن أجد ياسمين.

خرجتُ من غرفتي، فوجدتُ أنس في طريقه إلى إحدي جلساته، كان يبدو مختلفًا، يبدو ضعيفًا بعض الشيء -أو هكذا أتخيّل- يبدو عليه القليل من الإعياء والإرهاق!

- أنس، انتَ كويس؟!

- أنا تمام.. شوية تعب صغيرين.

- طب ما تاخد إجازة ارتاحلك يومين في بيت الرعب اللي انت عايش فيه دا!

- هاخد إجازة قريب أوي.. بس دلوقتي لازم أروح أخلص



اللي ورايا. بالمناسبة، دكتور عادل عايزك في مكتبه.

كان عادل جالسًا وأمامه أحد المرضى، أشار إليَّ بعينيه كي أجلس. كان المريض مُعظمه مشوَّه، يده اليمنى تفتقد عدة أصابع، يده اليسري تكاد تكون موجودة، يبدو وكأنه خرج للتو من عرين أسدٍ جائع!

- انت مدرك إنك لو فضلت على الحال دا هتموت قريب يا سيد؟

- يا دكتور عادل أنا مش بعرف أعيش من غير ألم جسدي.. بستمتع بيه، فبيبقى الحل إني آكُل جزء مني!

- يا سيد، انت مش مجنون ولا محتاج إنك تتكهرب عشان تهدى.. بس آديني بقولك إنك بالشكل دا هتموت قريب.. ودي حاجة أنا مش هسمح بيها.

دخل إليهم عم منير والذي قام بربط يد وقدم سيد في الكرسي، أخرج عادل أسود من جيب البالطو الخاص به بعض الأدوات الطبية الخاصة بأطباء الأسنان (أزميل، كاحت، وكلَّابة القطع)، اقترب من سيد و بينما ساعده عم منير بفتح فمه على مصراعيه بدأ عادل بتكسير جميع أسنان عم سيد والذي بدأ بالصراخ بشكلٍ مرعب!

أنظر إلى وجه عادل وأتعجب من عدم تأثره بما يفعل أو ببكاء الرجل وصراخه، ينقبض قلبي وتتسارع دقاته. دقائق من التكسير وانتهى من تدمير كل أسنان الرجل المسكين والذي تحول فمه إلى



اللون الأحمر من دمائِه. أمَرَ عادل عم منير أن يأخذ سيد ويعود به إلى زنزانته، ثم مسح الدماء التي غطتْ يده مستخدمًا بعض الكحول وجلس أمامي مبتسمًا:

- self cannibalism.

- استنتجت.. بس حل تكسير الأسنان دا غريب بالنسبة لي غير آدمي!

- سيد بقاله فترة هنا.. أبوه تاجر خضار غني أوي، في يوم صحى في وسط الليل هو وأُمه وأخواته على صوت سيد قاعد يخبط دماغه في الحيط زي المجانين ويضحك، أبوه قال الواد اتلبس وجابله شيخ، تخيل سيد يعمل إيه! والشيخ قاعد بيتكلم معاه قام من مكانه وأكل مناخير الشيخ.. بقى الأب يصوّت والأم أغمى عليها. الأب قعد شهور رابطُه في السرير عشان ما يعملش أي مصايب تانية.. وفي يوم سيد -الله يلعنه- قطع الحبل ببقه ودخل الأوضة على أخته الصغيرة وعَضَّها من رقبتها كان هيموتها. ماحدّش عرف هو عنده إيه، حتى لما جالي هنا أنا شخَّصت حالته على إنها (متلازمة أكل الذات) بس إحساسي إنه ممكن يبقى ملبوس جايز برضو. وحل تكسير الأسنان دا حل أخير إلّا لو أنا ماعنديش ضمير وعايزه يفضل عايش حياته ياكل في نفسه!

- يعني هو خلاص كدا هيروّح بيته؟ ولا فيه فترة متابعة؟

ضحك عادل بعد سماعِه الجملة، ولكنه سريعًا ما عاد إلى حالتِه الجادة وقال:



- بص يا يونس.. مافيش حد هنا بيروّح بيته. ناس كتير طلّعت حواديت عن المكان دا وإننا بنقتل المرضى، بس في الحقيقة الناس بيجيبوا المرضى بتوعهم هنا وبيدفعوا لي فلوس كتير عشان المرى دول يفضلوا هنا..

- ما بيتعالجوش!!

- لا طبعًا، بيتعالجوا وكويس جدًا كمان. المهم، خلينا في المهم.. أنا طلبتك عشان أسألك عن تجربة امبارح، حاسس بعدها إنك أحسن؟!

- أنا لسه مش مستوعب اللي حصل.. كأني بتفرج على فيلم من بطولتي!

- الغرض من التجربة دي إنك تريَّح أعصابك، كل ما تخلِّي دماغك تفتكر تفاصيل وتشوف اللي جواك كل ما هتقلّل الحِمل اللي مخلّيك مش مبسوط في حياتك.. وأي وقت تكون عايز تبقى أحسن هخليك تعيد التجربة مرة تانية. فيه أي حاجة شوفتها ضايقتك؟!

الذاكرة..

معظم الناس يتذكّرون أشياء سيئة حدثتْ لهم، ولكن في بعض الأحيان يتم نسيان الصدمة الشديدة. عندما يُصبح هذا النسيان شديدًا ومتطرفًا يحدث اضطراب انفصالي في بعض الأحيان، مثل فقدان الذاكرة الانفصالي **dissociative amnesia**، والشرود الانفصامي **dissociative fugue**، واضطراب نزع



الشخصية **depersonalization disorder**، واضطراب الهوية الانفصالية **dissociative identity disorder**.

كيف تعمل الذاكرة؟

الذاكرة ليستْ مجرد مُسجّل كما يعتقد الكثيرون. فالدماغ يُعالج المعلومات ويُخزنها بطُرقٍ مختلفة.

للذاكرة كيانٌ خاصٌ بها، يمكن أن تؤدي الصدمات المعتدلة **Moderate trauma** إلى تعزيز الذاكرة طويلة المدى، وهذه هي التجربة المنطقية التي يتمتع بها معظمنا، وتجعل من الصعب فهم كيف يمكن نسيان ذاكرة الأحداث الفظيعة.

قد تؤدي الصدمة الشديدة **Extreme trauma** إلى تعطيل التخزين على المدى الطويل، وترك الذكريات مخزّنة كعواطف أو أحاسيس بدلًا من ذكريات.

ويقول الكثيرون أنه قد يستغرق ما يصل إلى عدة أيام لتخزين الحدث بالكامل في الذاكرة طويلة المدى.

وثقتْ الدراسات أن الأشخاص الذين يعيشون في ظل صدمة شديدة قد ينسون الصدمة أحيانًا، ويمكن أن تعود ذاكرة الصدمة في وقتٍ لاحق من الحياة، وعادةً ما تبدأ في شكل أحاسيس أو عواطف، تتضمن أحيانًا "استعادة لذكريات الماضي" **flashbacks** حيث يشعر الشخص وكأنه يسترجع الذاكرة، وتصبح هذه المواد تدريجيًا أكثر تكاملًا حتى تُشبه الذكريات الأخرى.



هل الذكريات المُستعادة صحيحة بالضرورة؟

هل بالفعل قد تكون الذكريات كاذبة؟ أم كما أخبرني عادل أسود أن الذاكرة مستحيل أن تكذب؟!

هناك الكثير من النقاش حول هذا الموضوع، ويعتقد بعض المعالجين الذين يعملون مع الناجين من الصدمات أن الذكريات صحيحة لأنها مصحوبة بمثل هذه المشاعر الشديدة.

وقد أفاد معالجون آخرون أن بعض مرضاهم استعادوا ذكرياتٍ لم يكن من الممكن أن تكون حقيقية، مثل ذكرى بأن يكون رأس الشخص مقطوع، على سبيل المثال.

وزعمتْ بعض المجموعات أن المعالجين يزرعون الذكريات أو يتسبَّبون في ذكرياتٍ كاذبة في المرضى المعرّضين للخطر من خلال الإشارة إلى أنهم ضحايا سوء المعاملة عند عدم حدوث سوء معاملة. ويبدو أن بعض المعالجين أقنعوا المرضى بأن أعراضهم كانت بسبب سوء المعاملة عندما لم يكونوا يعرفون أن هذا صحيح. ولم يكن هذا يعتبر ممارسة علاجية جيدة، فمعظم المعالجين حريصون على عدم اقتراح سبب للأعراض ما لم يبلغ المريض عن السبب.

وهناك بعض الأبحاث التي تشير إلى أنه يمكن إنشاء ذكريات خاطئة للصدمة الخفيفة، ففي إحدى الدراسات قُدمتْ اقتراحات بأن الأطفال قد فُقدوا في مركز تجاري، وقد أصبح الكثير من الأطفال يعتقدون فيما بعد أن هذه الأحداث كانت ذكريات حقيقية حتى إن لم تكن قد حدثتْ في حياتهم بالفعل.



كلام مُخيف.. كلام مُعقد.. ولكن الأهم من كل هذا.. هل قتلتُ أبي؟!

هل قتلتُ أحمد ليل؟!

في زنزانة ديانا، كانت ترقص في دوائر مُقيدة الأيدي، بدا شكلها غريبًا ولكنها الغرابة التي تدفعك إلى حُب الفنون. ابتسمتُ وتركتُها لتُنهي رقصتها التي تخلو من الموسيقى، جعلتْني أُدرِك أهمية ما يأتي من الداخل؛ في الأغلب هي تسمع موسيقى خاصة بها تأتي من داخلها فتجعل قدميها أخَف وترفع روحها لكي ترقص بتلك الانسيابية.

لمحتْني أُراقبها فضحكتْ:

- ترقص معايا!

- أنا اتجوزت 3 مرات.. ما افتكرش إني رقصت في مرة مع أي واحدة منهم!

- عشان ولا واحدة من التلاتة كانت ديانا.. تعالى ما تتكسفش!

- سيبك من الرقص وتعالي عشان جايبلك حاجة..

توقفتْ عن الدوران، جلستْ أمامي، وفور أن رأتْ علبة السجائر بين يدي حتى تهلَّلتْ أساريرها. أعلم أنها إن لم تكن مُقيدة حتمًا كانت ستُصَفِّق مثل الاطفال بمنتهي السعادة والنشوة.



- عظيم انت يا دكتور.. ممكن تولعلي واحدة؟

- حالًا.. بس هتحكيلي؟

- لو ما حكيتلكش مش هتديني العلبة؟

- كدا كدا العلبة دي خلاص بتاعتك.. حتى لو فضلنا طول الجلسة ساكتين.

أشعلتُ لها سيجارة ووضعتُها بين شفتيها، استشفيتُ أنها لا تستطيع أن تُدخِّن السيجارة مكتوفة الأيدي، فسألتُها بكل جدية:

- أنا مش هندم لو فكيت إيدك عشان تشربي السيجارة.. صح؟!

- مش هعمل أي حاجة.. وعد.

فككتُ يدها، ملتهبتان من كثرة ربطهما، العشرات من آثار الانتحار على يديها ما بين خدوشٍ وجروحٍ ما زالت تلتئم.

نظرتْ إلى كفَّيها كَمَن يقابل صديقًا قديمًا، اقتربتْ مني وطبعتْ قُبلةً على خدي، ثم نظرتْ إليَّ بامتنانٍ وبدأت في تدخين سيجارتها باستمتاعٍ بيَدٍ ترتجف وقلبٍ أكاد أسمع دقاتَه بوضوح.

- أنا عندي 22 سنة.. عارفة إن شكلي وجسمي يقولوا غير كدا. كل حاجة في حياتي كانت عادية أوي لحد ما تميت الـ16، والعادي كان حلو، العادي كان مريح، بس أما بقيت 16 كل العيون بقت عليا، أب طول الوقت سكران ومش عارف يفرق بين مراته وبنته، زوج أم بيستنى أمي تنزل عشان يلمسني.. بقى الجسم اللي فرحانة بيه هو سبب تعاستي.



- حاولتِ تتكلمي مع مامتك؟ مع أي حد في العيلة؟

- لما أمي وأبويا سابوا بعض كنت شايفة إن أمي هي اللي غلطانة عشان سابته و اتجوزت صاحب عمره، فضلت عايشة معاه وأنا شايفاه كل يوم بينزل يسكر وما يرجعش غير الفجر مش شايف قدامه..لحد ما في يوم.. اغتصبني. حكيت لأمي.. شمتته وبهدلته وخدتني أعيش معاها. وبعد شوية وقت جوزها بدأ يعمل نفس اللي أبويا عمله.. بس المرة دي لما حكيتلها كدبتْني.. قالتلي إني أكيد أنا السبب وإني أكيد اللي برمي نفسي عليه. أول ما سمعت الكلام دا جريت على المطبخ وقطعت شراييني.. ما فوقتش غير بعد يومين في المستشفى..

- وطبعًا بعدها جابوكِ هنا!

- أنا جيت هنا من سنة بس.. كنت بهرب كتير وكل مرة بيلاقوني كنت بحاول أنتحر.. بدأت أحس فعلًا إني بـ7 أرواح زي القطط. أهلي يعرفوا دكتور أنس وهو السبب إني آجي هنا أنا وبنت تانية اسمها ياسمين..

- ياسمين! اسمها ياسمين إيه؟ طب شكلها عامل إزاي؟!

- ياسمين الفخراني.. ليه اتخضيت كدا؟!

- هحكيلك.. هحكيلك كل حاجة..

في غرفتي بعد الجلسة، استرجعتُ كل ما قالته ديانا، حكَتْ لي عن هروبها المُتكرر من المنزل، سواء منزل أبيها أو منزل أُمها، حكَتْ لي أنها أصبحتْ تكرَه جسدها الذي أصبح مصدر تعاسة

وشقاء لها، حكَتْ لي عن سنوات تتنقَّل فيهم من بيتٍ إلى بيت، قصة وراء قصة، مرة في منزل صديقٍ تظهر نواياه الحقيقية مع الوقت، ومرة منزل صديقة تجعلها تدق باب عالم آخر أشد تعاسة مثل عالم المخدرات. لم تعد تشعر بالأمان في هذا العالم، فكرتْ كثيرًا أن تضرب بكل معتقادتها عرض الحائط وأن تنجرف وراء كل مَن يريد جسدها، ولكنها لم ترِد أن تُصبح مثل الكثيرين، أرادتْ حتى أن يبقى لديها شيء واحد فقط لا يجعلها تفقد الإيمان تمامًا بنفسها.

حكَتْ لي ديانا عن ذات صباح، كانت قد تركتْ للتو منزل صديقة لها من أيام المدرسة، أسفل العمارة كان أنس في سيارتِه ينتظرها، في الأغلب كان يُراقبها منذ فترة. أنس صديق قديم لعائلتها، عرفتُ بعد ذلك بأن الأم هي من طلبتْ منه أن يراقب ديانا وأن يتحفَّظ عليها بأي شكل؛ نزل من سيارتِه وألقى عليها التحية، ثم أخرج من جيبِه (سرنجة) دَسَّ محتواها في رقبة ديانا ففقدتْ الوعي على الفور، ولم تفِق إلَّا بعد عدة ساعات، فتحتْ عينيها فوجدتْ نفسها في منزلٍ مُخيف مُزيَّن بالأعضاء البشرية والجثث، شعرتْ وقتها بأنها فتحتْ عينيها على كابوس، قالت لي:

- أول ما فتحتْ عيني لقيت نفسي في شقة شبه اللي كنت بشوفها في أفلام الرعب، جثث وأعضاء بني آدمين. حسيت إني في كابوس ومش عارفة أصحى منه.. كنت لسه دايخة، حاولت أهرب بس الباب كان مقفول من برا، الشبابيك كلها مقفولة بحديد، بدأتْ أجري في الشقة زي المجنونة لحد ما لقيت في أوضة بنت مربوطة من رجلها بسلسلة حديد، شكلها تعبان وخايف،

قربت منها وسألتها «انتِ مين؟ وإحنا فين؟!» بس مالقتش منها جواب، خدتها في حضني وقعدتْ تعيط لحد ما هديتْ.. كل اللي قالته إن أختها هي اللي جابتها هنا.

- مش فاكرة اسم أختها إيه؟ أي حاجة قالتهالك؟!

- حنين.. اسم أختها كان حنين.

حاولتُ أن أتماسك، حاولتُ أن أثبت، ولكنني فشلتُ، بدأتُ بالنحيب كرجلٍ فقد عائلته للتو، أطفأتْ ديانا سيجارتها واقتربتْ مني والقلق يبدو عليها. هي لا تعرفني ولا تعرف سبب بكائي، ولكنها بدأتْ في البكاء أيضًا، احتضنتْني وهي ما زالت لا تفهم أي شيء.

كان المشهد سينيمائيًا، طبيب مُضطرب بين أحضان فتاة مَكروبة يبكيان دموعًا تحمل بين طيَّاتها أهوال سنواتٍ مضتْ وسنواتٍ آتيَة لا أمل بها.

أعوام وأنا أعيش بتأنيب الضمير، أعيش مُعتقدًا أنني مَن قتلتُ زوجتي ياسمين الفخراني، ولكن.. كيف؟!

نعم، كنتُ أخاف عليها من العالم الخارجي وهي التي لم تعرف في حياتها سوى النقاء والطيبة، لم أرِد لها أن تترك مزرعتها وحيواناتها الأليفة، في الخارج لا يوجد شيء، شيء على الإطلاق قد يُضاهي تلك السعادة.

أحاول أن أُرتب أوراقي لكي أفهم، فتتحول الأوراق إلى لغزٍ غير مفهوم!



لماذا تزوجتْني حنين؟! لماذا أرادتْ الانتقام لشيء لم يحدث؟! لماذا فعلتْ كل هذا وياسمين حية تُرزَق؟!

- بعد فترة أخدنا أنس على المصحة هنا.. الكلام دا تقريبا من سنة.. ومن يومها وأنا ماشفتش ياسمين!

- ديانا.. عشان خاطري ما تعمليش حاجة في نفسك! أنا عارف إن اللي عدى عليكِ كان كتير، عارف إنّك فقدتِ الإيمان بالعالم كله، بس أنا عايزك تجددي ثقتِك بيه من خلالي. أوعدِك إني هخرَّجك من هنا.. أوعدِك إن حياتِك اللي جاية هتبقى أجمل، بس إديني فرصة ألاقيها.. ألاقيها وكل حاجة بعدها هتبقى تمام.

***

في الليل، واجهتُ كابوسًا جديدًا قبل النوم..

كنتُ قد انتهيتُ من تناول طعامي، أخرجتُ من حقيبتي كتابًا ليُساعدني على النوم، دقائق وأُصبتُ بالملل من محتواه، فوضعته إلى جانبي لأجد (حنين) جالسة على المقعد، بين فخذيها جلستْ ياسمين تبكي بينما تمشط لما حنين شعرها بسكينٍ صغير، كلما مرَّتْ بالسكين على شعرها قطعتْ بعضًا منه، بينما تبكي ياسمين بلا صوت خوفًا منها. حاولتُ أن أجذب السكين من يدها لكنني لم أستطع الحراك، كان أبي يُمسك بذراعي والغضب يتطاير من عينيه المحمَّلة بالكُره، حاولتُ أن أتخلَّص منه إلا أن أمي أيضًا ظهرتْ وبدأتْ تُساعده في تقييدي، ويارا كانت تشاهدنا من بعيد بلا اكتراث.

- يارا.. ساعديني!

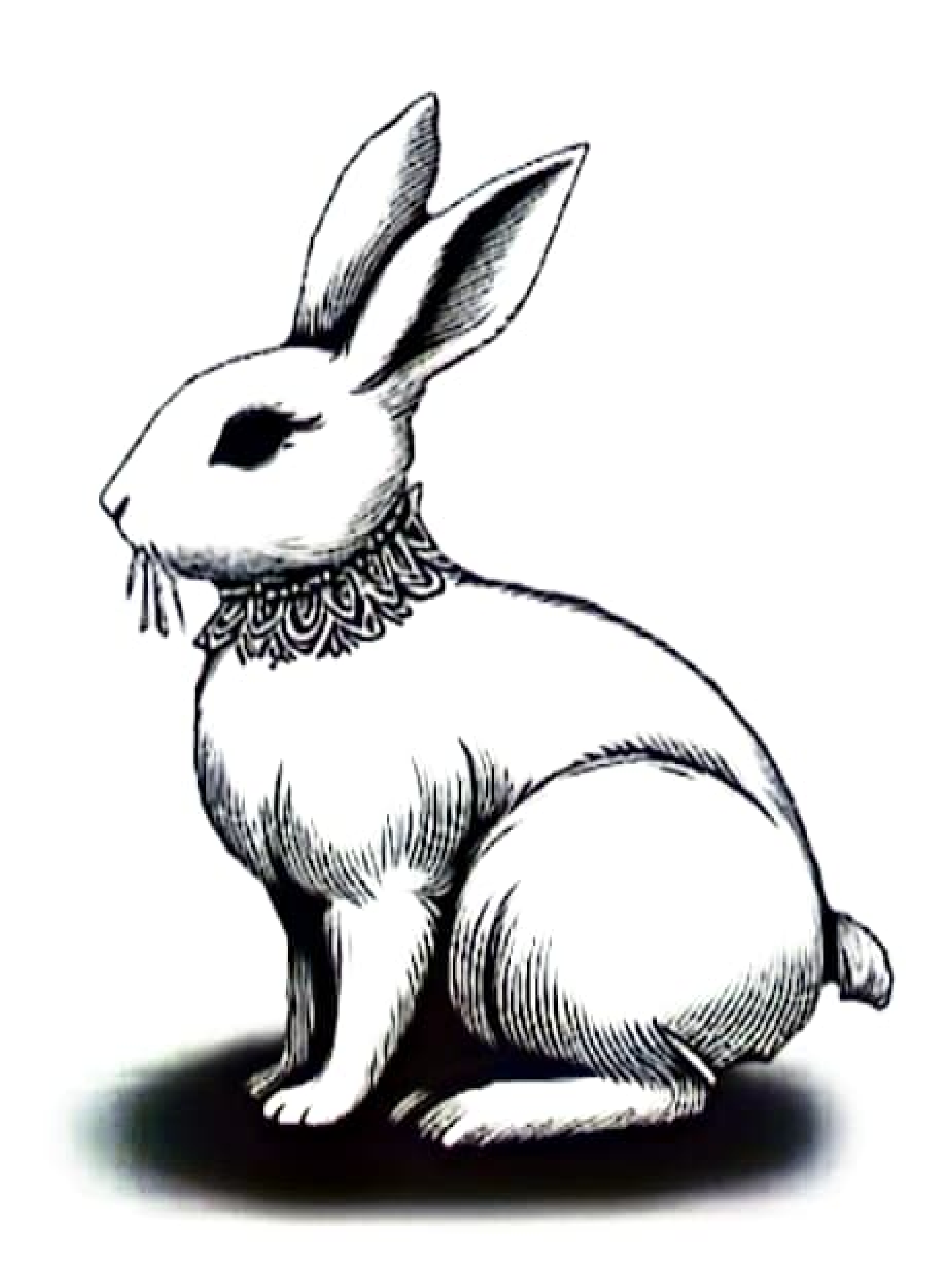
- آسفة يا يونس.. مش هقدر أساعدك.. انت تستاهل اللي انت فيه..

شعر ياسمين المقطع يتجمَّع ويتحوَّل إلى أفاعي صغيرة، تبدأ تلك الأفاعي في الالتفاف حولي، أسمع صوت الفحيح بين ضلوعي فأسقط في التو مغشيًا عليَّ، بينما يُراقبني من أحد أركان الغرفة طفل صغير، يرتدي قناعًا لأرنب كثيرًا ما رأيتُه وكثيرًا ما كرهتُه..



الفصل السابع

صفحة قديمة







القاهرة – 2000.

كنتُ يومها جالسٌ في غرفتي أذاكر، في الخامسة عشرة من عمري والحياة قد بدأتْ في السكون؛ زيتون لا يظهر كثيرًا إلا في أوقاتٍ معينة، نوبات الغضب قد قلَّتْ كثيرًا، حتى دكتورة رحمة لم أعد أذهب إليها كثيرًا مثل الأعوام السابقة. دخل أبي غرفتي -وهو شيء لا يحدث كثيرًا في المطلق- بين يديه كان يحمل علبة، جلس على طرف فراشي وأشار إليَّ أن أذهب إليه..

- أنا جاي عشان حاجتين.. أول حاجة عايزك تستعد عشان هنروح أنا وانت الفيوم الأسبوع اللي جاي، هناخد مركب ونصطاد، إحنا بقالنا سنين عايشين في وجع قلب، دا الوقت اللي لازم نصلَّح فيه كل حاجة..

- أنا وحضرتك بس؟!

- آه يا يونس. تاني حاجة عايزك تفتح العلبة دي، فيها حاجة عشانك.

فتحتُ العلبة، كان بداخلها شيء غريب لم أرَه من قبل، قناع لوجه أرنب يبدو حقيقيًا تمامًا. انتابَني شعورٌ بالخوف فَور رؤيتي



له، أمسكتُه بين يدي وأنا لا أفهم ما هذا!

- القناع دا عايزه معاك دايمًا..

- إيه دا يا بابا؟!

- النهاردا كنت بتمشّي في وسط البلد، بدوّر لأُختك على كتاب بقالها فترة بتدور عليه، عديت قدام محل بيبيع ملابس تنكُرية والحاجات دي، والقناع دا كان في الفاترينة.. أول ما شوفته قلبي اتقبض، مع إني أسمع إن الأرنب في الحلم خير، الأرنب رغم إنه في الأغلب حيوان أليف إلا إنه من الكائنات اللي صعب تقدر تحدد مشاعرها.. اللي خلّاني أستغرب هو إن إزاي وش أرنب شكله ضايقني بالشكل دا!

- طب وحضرتك ليه جيبته؟!

- عايزك تعتبر القناع دا سلاحك.. كل ما تبدأ تشوف عفريت أو أي شيء يخوّفك البس القناع دا، استخبى من أي مخاوف جوا القناع دا.. أعتقد إنه زي ما قدر يخوّف واحد زيي مش بيخاف من حاجة هيقدر يخوّف أي حاجة تفكر تقرّب منك!

كانت تلك المرة الأولى -أو المرة التي أتذكرها- التي احتضَنَني فيها أبي، ضمَّني بين ذراعيه الضخام. ابتسم لي بعدها وهو يغادر غرفتي وذكرني برحلةِ الصيد الخاصة بنا الأسبوع القادم.

طوال الأسبوع كنتُ في حالةٍ مِزاجيةٍ جميلة، أشعر بسعادةٍ تغمرني وتملأ فؤادي، أشعر للمرة الأولى في حياتي أن أبي يُحبني، أحسبُ الأيام بالساعات والدقائق، حتي جاء اليوم الموعود، أو

لأكون أكثر دقة (اليوم المشؤوم).

كنتُ قد توقفتُ منذ فترةٍ عن تناول المهدئات، أخبرتْني الدكتورة رحمة أنني لا أحتاج إليهم بعد الآن، قالت أنّ حالتي تتحسّن بدون عقاقير مساعدة.

اصطحبني أبي بسيارتِه حتى وصلنا إلى الفيوم، استقبلنا مُستأجِرُ المراكب بترحابٍ شديد، (النونو).. ساعات من السعادة النقيَّة قضيتُها مع أبي (أحمد ليل)، نضحك ونصطاد.

كل ما أتذكره بعد ذلك أنني استيقظتُ من النوم على متن القارب ويدي وملابسي ملطخة بالدماء، كان الوقت ليلًا ولا يوجد غيري بالمركب، أبي ليس هناك.. أنا وحدي على المركب التي استقليتُها منذ ساعاتٍ مع أبي، والدماء تُشير إلى أنّ شيئًا مُخيفًا قد حدث منذ قليل، شيء لا أستطيع أن أتذكره!

ساعات وأنا أصرخ طالبًا النجدة من أي أحد، أُحاول أن أعثر على أبي في الماء، أُفتّش عنه كل ركنٍ بالمركب، أقول لنفسي أنه ربما يُمازحني أو يلعب معي (استغماية) بشكلٍ جديد!

ساعات مرّت حتى ظهرت مركب تقترب مني، فوقها النونو وبعض رجال الشرطة، وأول شيء قاله لي:

- أبوك فين يا يونس؟ قتلت أبوك يا يونس؟!

أفراد الشرطة بحثوا عن جثة أبي لعدة أيام في البُحيرة، لكن دون جدوى.

تم إيداعي بإحدي المصحات الخاصة بالأطفال لعدة أشهر،



وبعد شهورٍ من خروجي من المصحة توفيَ اثنين كانا كل ما أملك وقتها، أمي والدكتورة رحمة.

- إزاي ماحدّش لقى جثة والدك؟! احكيلي اللي حصل بعد ما صاحب المركب قالك (انت قتلت أبوك)!

سألتْني ديانا وهي تتناول سيجارتها بنهمٍ شديدٍ.

- مش قادر أفتكر تفاصيل، تحقيقات وأسئلة، البوليس دوّر على أبويا كتير بس ماحدّش قدر يلاقيه، كأن البحر بلعه! عمري ما هنسى نظرة أمي ليا يوم العزا بتاعه، نظرتها قتلتني. يارا أخدتني مصحة خاصة بالأطفال اللي في سِنِّي وقتها، جلسات ورا جلسات، العيال كانوا بيخافوا مني هناك، كنت مبسوط من خوفهم مني، قبل كدا في المدرسة كانوا بيضربوني، بس الأطفال دول مجرد ما سمعوا إني قتلت أبويا جالهم حالة رعب مني كنت بحبها جدًا.

- وبعدين؟!

- رجعت البيت بعد 6 شهور تقريبًا، أمي ما بصّتش في وشي حتى وقتها، بقيت شخص منبوذ في البيت.. وبعد شهور أمي اتوفّت بسكتة قلبية، وسبحان الله، دكتورتي النفسية ماتت في نفس الفترة. لقيت نفسي فجأة بين 4 حيطان أنا وأختي.. وقتها بس قررت إني لازم أغيّر شكل كل حياتي.. مش هستسلم وهدرس وأبقى الشخص اللي احتاجته لنفسي.

في غرفة الأستاذ سعد، جلسنا سويًا نستمع إلى صوت محمد



فوزي في سعادة، ملامحه لا أتبينُها تمامًا من وراء لحيته وشاربه الأشعث، ولكنني على يقينٍ بأنه سعيد، بل شديد السعادة. ما زال يحمل الصورة الفوتوغرافية بين يديه كَمَن يحتَضِن طفلًا، يهزّ رأسَه مع نغماتِ كل أغنية.

ساعات أقضيها معه، لا نتحدث ولا أحاول أن أسأله عن أي شيء، فقط أستمع معه إلى أُغنيات محمد فوزي وأرحل بعدها وأترك له مُشغّل الأغاني لينعَم بيومٍ سعيد، لكن هذا اليوم أردتُ أن أحصل على انتصارٍ حتى لو كان بسيطًا، أردتُ أن يُخرِج ولو قليلًا مِمَّا بداخلِه.

أغلقتُ الموسيقى فالتَفتَ إليَّ بقلقٍ يعتري وجهه..

- أستاذ سعد.. تعالى نتكلم شوية!

لم ينطق، لكن على الأقل حصلتُ على اهتمامه وجعلته ينظر إليَّ.

- أنا عارف إنك ما اتكلمتّش مع أي حد هنا.. بس أنا عايزك تعتبرني صاحبك!

أشرت إلى رسمة الشباك على حائط غرفته وأكملتُ كلامي:

- لو ساعدتني أوعدَك إني هخليك تمشي من المصحة دي وترجع لعيلتك!

- ما عادش.. ليا.. عيلة.

نطق الكلمات الثلاثة بصعوبةٍ كَمَن لم يتحدث من قبل، كَمَن



تَناسى الحروف بشكلٍ بشع، كَمَن فقد ماهيتَهُ بلا رجعة.

- ليه بتقول كدا؟ هما بس عايزينك تبقى كويس عشان ترجع وسطهم!

- عيلتي مشيت.. راحوا بعيد وسابوني.. سابوني مع ناس غيرهم.

- كل يوم احكيلي شوية عن عيلتك.. وعد مني هخليك ترجع لعيلتك اللي بجد!

لم تظهر عليه ملامح سعادة أو تحّمس لكلماتي، ولكنّه أيضًا لم يُبدِ اعتراضًا. اللا شيء الظاهر عليه مُرضي جدًا بالنسبة لي، لا أريد منه أي شيء مُبالَغ فيه سوى أن يكون مستوعبًا وقادرًا حتى على البوح بكلماتٍ بسيطة قد تساعدني في التعرّف عليه بشكلٍ أوضَح حتى أتمكّن من علاجه.

فور أن خرجتُ من جلستي مع الأستاذ سعد اتجهتُ إلى مكتب الدكتور عادل، أشعر ببعض التعب المفاجئ في معدتي يُصاحبه صداع شديد، ولكنني أتجاهل كل هذا، أستنتجُ أن كل ما يحدث لي من تعبٍ وإرهاقٍ بسبب التغير التام في حياتي؛ شمس وراحة بال بأسوان يقابلها الآن برودة وظلام.

أدلفُ إلى غرفتِه لأجده جالسًا خلف مكتبِه يقوم بتنظيف خاتمه بمِنشفة صغيرة الحجم..

- مساء الخير يا دكتور عادل!

- أهلًا يا دكتور يونس.. اتفضل!



- آسف لو جايلك في وقت متأخر.. بس حبيت أتكلم معاك شوية!

- أنا مكتبي مفتوحلك دايمًا.. وبعدين رغم إن بقالك معانا 3 أسابيع بس إلا إني شايف تطور ملحوظ في الحالات بتاعتك!

- ما أنا جاي فعلًا بخصوص الحالات.. لو ينفع لو حتى ساعة في اليوم نخليهم يطلعوا يتمشّوا في الشمس!

تغيّرتْ ملامحُهُ على الفور، توقّف عن تنظيف خاتمه ونظر إليّ:

- أبويا -الله يرحمه- كان بيفكّر زيّك بالظبط، إن المرضى لازم يتعرّضوا للشمس. عارف يا يونس.. فيه هرمون اسمه (السيروتونين) بيزيد في الجسم لما الإنسان بيتعرّض للشمس.. هرمون السيروتونين مرتبط بتحسين المزاج ومساعدة الأشخاص على الشعور بالهدوء والتركيز، ولما الإنسان ما يتعرّضش لأشعة الشمس بالمقدار الكافي، مستويات هرمون السيروتونين تنخفض في الجسم، المستويات القليلة من هرمون السيروتونين مرتبطة بالإصابة بالاكتئاب العام يصاحبها حدوث الاضطرابات العاطفية الموسمية،Seasonal affective disorder.. وهو نوع من الاكتئاب بيحصل مع تغير فصول السنة.

- يعني حضرتك عارف أهمية تعرّض المرضى للشمس! طب ليه محبوسين؟!

- المصحة زمان لما اتبنت كانت بناية عادية فوق سطح الأرض والجزء اللي إحنا فيه دا كان مجرد مخزن غير مستخدم.. الحالات



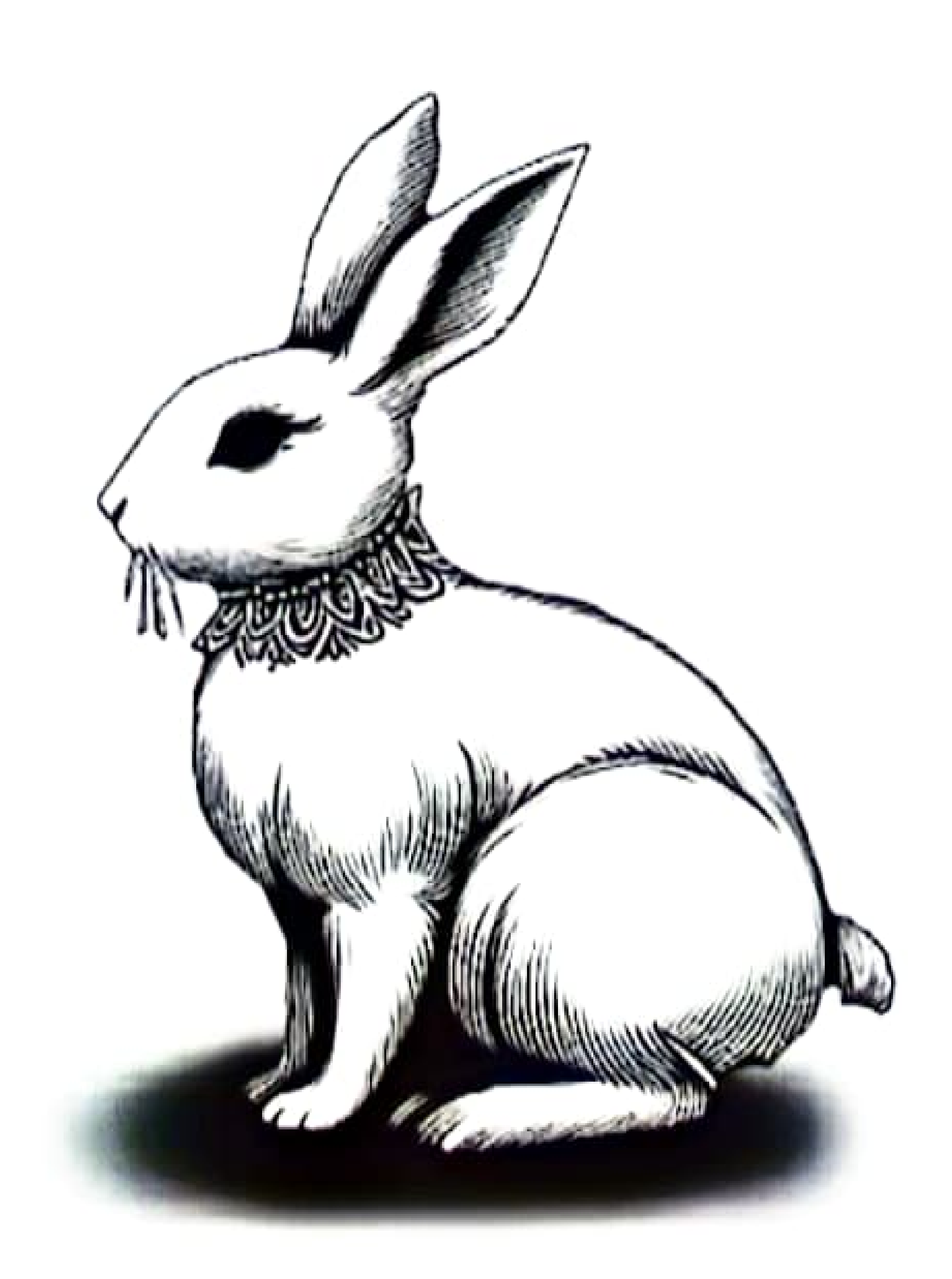
كانت بتخرج كل يوم وتقضّي معظم الوقت في الشمس، مزاجهم بيتحسن، أو على الأقل دا اللي بيحسّوه ساعتها، إنهم خلاص حالتهم اتحسنتْ، تيجي التقارير إنهم يقدروا يخرجوا من المصحة، وأول ما يخرجوا يرجعوا من تاني أسوأ من الأول. عشان كدا أول ما بقيت مدير المستشفى قررت إني أهِد المبنى الأساسي بالكامل وما يفضلش غير الجزء اللي تحت الأرض، عشان اللي يبقى أحسن يبقى أحسن من غير عوامل مُحفزة. هستأذنك تتفضل عشان محتاج أنام!

- أكيد طبعًا.. تصبح على خير.



الفصل الثامن

ياسمين





أمام غرفتي كان عم منير واقفًا في يده صينية فوقها طعام العشاء الخاص بي، كان يبدو متعبًا، حالة من الإعياء والإرهاق تظهر عليه مثلما كانت ظاهرة على ملامح دكتور أنس منذ أيام، يحاول أن يُحافظ على ابتسامتِه وتوازنِه.

اقتربتُ منه مبتسمًا وفتحتُ له باب الغرفة:

- ما دخلتش حطيت الأكل جوا ليه بس يا عم منير؟ إيه اللي مخليك واقف كدا وانت شكلك تعبان؟!

- لما سمعت صوت خطوتك بتقرّب قُلت أستنى حضرتك تفتح بنفسك سعادتك يعني..

- وشك أصفر.. وباين عليك التعب! أخدت أدوية؟!

- دول شوية إرهاق حضرتك وهيروحوا لحالهم.. وبعدين مش عايز أقلق دكتور أسود عليا!

- يا سيدي اعتبرني زي الدكتور أسود.. تعالى معايا ننزل مخزن الأدوية.. وبالمرة تعرفني مكانه!

شعرتُ ببعض الارتباك الواضح عليه، فكررتُ مرة أخرى رغبتي بالذهاب إلى مخزن الأدوية بحزمٍ مُفتعلٍ بعض الشيء.

- مخزن الأدوية في الدور اللي تحت جنب غرفة العزل حضرتك!

- طيب، يلا بينا.. هديك شوية أدوية هتخليك زي الفل.

- طب والعَشا؟ كدا العشا هيبرد!



- لا ما أنا بحب الأكل بارد.. يلا بينا!

عندما مررنا بجانب غرفة العزل، شعرتُ بصوت أنفاس عم منير تعلوا بتوترٍ ملحوظ، لا أعلم إن كان بسببٍ لا أعلمه أم بسبب تعبه، ولكنني سألتُه:

- غرفة العزل النفسي فيها حد؟ أصلي بفكّر أدخّل ديانا يومين كدا!

- لا دي عطلانة حضرتك.. بقالها فترة عايزة تتبطّن وأنا بصراحة بتلكّع.. حضرتك فاهم بقى حُكم السن!

- طب ما تدخلني أتفرج عليها من جوا!

- هي سيما يا دكتور! وبعدين نسخة المفتاح بتاعها مع الدكتور أسود. اللي على إيد حضرتك اليمين بقى مخزن الأدوية..

شعرتُ ببعض الاستياء لعدم قدرتي على دخول غرفة العزل؛ بداخلي شعورٌ قويّ أن ياسمين محبوسة بداخلها، ولكنني لا يجب أن أُظهِر اهتمامًا مبالغًا فيه بتلك الغرفة. دلفتُ إلى مخزن الأدوية، سحبتُ بعض العلب وناولتهم إلى عم منير:

- فيتامين ب12 وفيتامين د..

ثم أخرجتُ من جيبي بعض المال ودسستُه في جيب منير قائلًا:

- عايزك تروح تجيب لنفسك أكلة كباب وكفتة ترُم بيها عضمك بدل أكل المصحة اللي يجيب الهم دا، وتجيبلك بيض ولبن.. دلع نفسك.. وماتنساش الأدوية تاخدها الصبح وبالليل!

- الله يكرم سعادتك يا أمير.. والله حضرتك طلعت راجل طيب!

- خلي بالك على صحتك يا عم منير.. ماحدّش هينفعك لو وقعت!

في مكانٍ آخر، بعدما دلفتُ إلى فراشي للنوم، كان الدكتور عادل أسود يدخل شقته الفاخرة بأحد الأحياء الراقية بالقاهرة، نزع ملابسه ثم توجّه إلى (البانيو) ليَنعم بحمامٍ دافئ.

مال برأسِه إلى الوراء ليُضيف بعض الراحة على جلستِه بالبانيو، رفع يده أمام عينيه يتأمل خاتمَه الفيروزي، لينتفض فجأة على صوتٍ مُخيف وبارد أتى مِن خلفِه:

- عملت إيه؟

- انت ناوي توقفلي قلبي في يوم، صح؟!

- قلبك لو وقف هيبقى بسببك انت.. ناوي على إيه؟

- لسه.. لسه شوية.

اقترب كائنٌ غريب الملامح من البانيو، كائن ذو أصابع طويلة تمتد إلى الأرض، يُغطي جسده بالكامل بعباءةٍ سوداء مُهترِئة لم تكشف من ملامح وجهه سوى فمه البشع، وقال لعادل:

- الوقت في صالحك؟

- مش كل حاجة محتاجة استعجال.. خصوصًا الموضوع دا.

***

في صباح اليوم التالي، صعدتُ إلى سطح المصحة لكي أُحادِث عصفورة في الهواء الطلق. انشغالي الأسابيع الماضية جعلني أنسى التحدث إليها، تعجبتُ كثيرًا من نفسي لأنها المرة الأولى التي أصعد فيها إلى الخارج منذ قدومي، كيف لي أن أنسى الخروج ولو لدقائق لأنعم ببعض الهواء؟!

هل المصحة بالفعل ملعونة كما قال لي أنس من قبل؟ هل بمرور الوقت أُصبح أنا وتلك المصحة كيان واحد؟!

مريض بها، والآن طبيب، والاثنين يعيشان في تعاسة!

- وحشتيني!

- بقالي أسابيع بحاول أكلمك.. حرام عليك يا يونس!

- حقك عليا.. الموضوع ما طلعش سهل زي ما كنت فاكر.

- لقيت ياسمين؟ هترجع إمتى؟!

- لسه.. هرجع أول ما ألاقيها. أهم حاجة عندي بس تاخدي بالك من نفسك ومن اللي في بطنك.. الجدة ونجي أخبارها إيه؟

- تعبانة شوية، بس ماتخافش إحنا كلنا كويسين ومستنيينك ترجع..خلي بالك من نفسك يا يونس!

انتهيتُ من مكالمتي وعدتُ إلى الداخل حيث كان أنس في انتظاري في نهاية درجات السلم، كان يبدو شاحبًا، أبيض كرجل الثلج، يُمسِك (درابزين السلم) بكل قوته ليحافظ على



توازنه..

- انت لازم تاخد إجازة يا أنس.. انت مش شايف شكلك؟!

- أنا تمام.. إيه اللي طلعك برا يا يونس؟

- يعني إيه؟! هو أنا محبوس في المصحة؟!

- أنا وانت عارفين كويس إنك مش محبوس.. وإنك جاي هنا بكيفك.. أنا بس مش عايز دكتور عادل ولا عم منير يشوفوك داخل خارج!

- غريبة! بتتكلم كأنك خايف عليا! على العموم أنا طلعت أكلم مراتي أتطمن عليها، ما تقلقش.. المهم انت تعالى معايا عشان أشوف مالك!

استندَ أنس عليَّ حتى وصلنا إلى غرفتي، فحصتُه ولكنني لم أفهم تحديدًا ما أصابه، مئات الأمراض تدور في عقلي بالنظر إلى حالته، لا أستطيع حتى تحديد إن كان مرضه مرض التهابي، مرض رضوضي، مرض وراثي مثلًا، أو مرض ورمي عصبي!

كل ما أعرفه أنه يتألم جدًا ويحاول إظهار غير ذلك، وأن ما يحدث له يتشابه كثيرًا مع حالة عم منير!

شهر كامل مَرَّ بالتمام والكمال، أصبحتُ الآن طبيبًا يعمل بشكلٍ دائمٍ في (مصحةِ الموت الأسود).

أيام وليالٍ تمُر بشكلٍ مُتشابه، أستيقظ باكرًا لأتناول إفطاري، بعدها أقضي ساعات الصباح بين مرضاي والذين زاد عددهم،



إلّا أنّ ديانا والأستاذ سعد ما زالوا هما اهتمامي الأول لسببٍ أجهلُه. أبدأ يوميًا في عملية بحثي عن ياسمين بين الغُرف وأنا كُلِّي أمل أنني سأعثر على سردابٍ خفيّ أو غرفةٍ لا أبواب لها، أُجاهد كي أُقنع عم منير بضرورة إصلاح غرفة العزل، أسأل عنها كثيرًا وأطلب كثيرًا رؤيتها.

في الليلة الأولى من الشهر الثاني بالمصحة، زارتْني فتاة الحلم مرة أخرى؛ فتاة عشرينية مذعورة وخائفة من شيءٍ ما، تتحرك مثل المجاذيب وتتجه لا إراديًا نحو سلمٍ عتيق، تصعد درجاته بسرعةٍ يشوبُها الخوف، ويتصاعد من أخشاب السلم صريرٌ مزعجٌ، في الأغلب لا يكترث له أحد، في الأغلب صرير أرواحهم المظلمة يعلو كل شيء!

لم تتوقف قدميها عن الحركة حتى وصلتْ إلى سطح المبنى، نظرتْ إلى الأسفل في حزن، نظرتْ إلى الموتِ الذي رأتْهُ يبتسم لها في رضا، وبينما دقتْ الساعة العتيقة صوتها مُعلنة انتصاف الليل، أغمضتْ عينيها وألقتْ بنفسها بلا تلجلجٍ ولا ارتباكٍ، لتسقطت جثةً هامدة تسيل من جسدِها الدماء بلا رحمة..

أرى نفسي في الحلم أقترب من جثتِها، أجثو على ركبتيّ إلى جانبها، تقترب يدي من وجهها، أتفقدُها فتفتح هي عينيها على مصراعيهما وتقول: "اِلحقني يا يونس".

كل مرة كان الكابوس ينتهي تمامًا عند تلك الفقرة، ولكنني اليوم لم أستيقظ، بل تفقدتُ ملامحها لأكتشف أنها ملامح ياسمين، جلدٌ على عظم، مُتعبَة وخائفة!



استيقظت من النوم على صوت دقات باب الغرفة، كان الطارق عم منير، دخل إلى الغرفة والتعب ما زال ينبش في روحِه، جلس أمامي وشرع في البكاء..

- مالك يا عم منير؟ إيه اللي حصل؟!

- الدكتور أنس.. تعيش انت!

- يا ساتر يا رب! إيه اللي حصل؟!

- الدكتور أنس بقاله أسبوع مش بييجي، ودكتور عادل كان فاكره عيان، طلب مني أروحله البيت أشوفه، قعدت أخبط كتير أوي وفي الآخر كسرت الباب.. لقيت لونه زي التلج حضرتك وعينه عليها خوف.. الله يرحمه!

- ربنا يرحمه ويغفر له..

صمتَ قليلًا وهو في حالة تردد، ثم قال:

- حضرتك لسه عايز تدخل غرفة العزل؟!

- مش كنت قايلي المفتاح مش معاك؟!

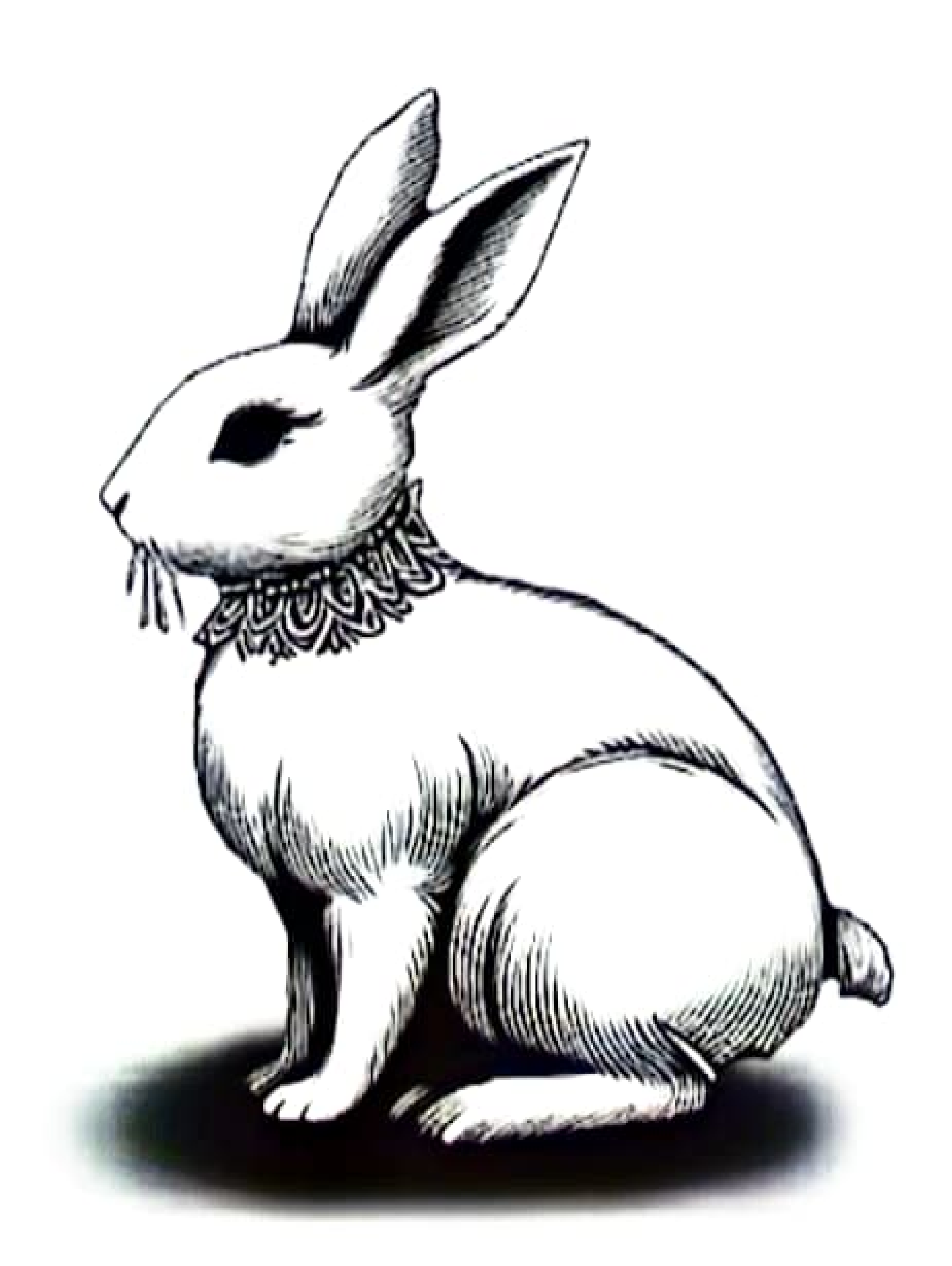
- لو قدرت أجيبه لحضرتك توعدني تحاول تعالجني؟! خايف يبقى مصيري زي الدكتور أنس..

- صدقني يا عم منير أنا مش عارف انت عندك إيه.. بس أوعدك لو خليتني أشوف الأوضة هعمل كل اللي أقدر عليه عشان أساعدك.



الفصل التاسع

خاتم من الفيروز





في المساء، وبينما أنا جالس في غرفتي، ظهرت لي جدتي تجلس على مقعدها الوثير -الذي لم تكن تجلس على سواه-لا أستطيع أن أُميّز إن كنتُ مُستيقظًا أم نائمًا.

اقتربتُ منها فابتسمتْ..

ماتت جدتي بعد وفاة أمي بعامٍ واحد، حياتي في هذا العام كانت منقسمة بين بيت جدتي وبيت أختي يارا، ولكنني فضّلتُ أن أعيش مع جدتي هذه الفترة كي لا أُعكِر صفو يارا والتي كانت قد تزوجتْ حديثًا.

كان الصمتُ هو سيد الموقف تلك الفترة بيني وبين جدتي (تيتة صفية)؛ في الشهور الأولى لم يكن بيننا أي علاقة، فقط أسمعها تُوجِّه إليَّ الجُمل التالية :

"صباح الخير.. الأكل على السفرة.. اقفل النور.. تصبح على خير".

هي في أغلب الوقت تجلس بشرفة غرفتها تقرأ، وأنا بين دراستي وبين غرفتي.

وفي إحدى الليالي، بينما أنا جالسٌ أُشاهد التلفاز، سمعتُ صوتها تناديني، انتفضتُ خوفًا لأنني لم أعهد سماع صوتها يخاطبني، اتجهتُ إلى غرفتها فطلبتْ مني الجلوس أمامها.

دقائق من الصمتِ قطعها صوتها تسألني:

- عمرك شفت كوابيس قبل النوم يا يونس؟

- يعني إيه يا تيتة؟!

- من يوم ما أمك ماتت وأنا بيجيلي كوابيس قبل النوم.. أمك بتيجي تزورني وبيبقى شكلها مُرعب.. أنا مش عارفة أعيش كدا!

- تحبي نروح لدكتور؟ أكلم يارا؟!

- عايزاك تحضّر شنطتك.. هنسافر بكرة.

- هنسافر نروح فين؟!

- أسوان.. هنزور واحدة أعرفها من زمان.. واحدة تقدر تساعدني أبطل أشوف الكوابيس دي.

تذكرتُ ذاك اليوم جيدًا، رغم أنني لا أتذكر ما حدث بعدها، ولا أتذكر تفاصيل تلك الرحلة.

اقتربتُ منها في قلق، تجلس ساكنة على غير عادتها تحدِّق بي، وما إن أصبحتُ أمامها تمامًا حتى تحولتْ إلى زيتون بعباءته السوداء.

- انت بتلعب؟!

- الحق عليا إني بحاول أخليك تفتكر حاجات محتاج تفتكرها دلوقتي! هتفضل في المكان دا كتير؟!

- قريب هنسيبه يا زيتون.. بس أنا مش همشي إيدي فاضية.





في مكتب دكتور أسود، جلس عم منير أمام دكتور عادل أسود والقلق يبدو عليه..

- مالك يا عم منير؟ بتاخد الدوا؟

- باخده حضرتك.. بس مافيش تحسّن.

- أنا عايزك تشد حيلك.. موت أنس مخلّي ضغط الشغل عليا بزيد!

- ما كفاية كدا يا عادل يا ابني! مش عملت اللي انت عايزه خلاص؟ اقفل المصحة بقى وسافر شوف الدنيا وعيش حياتك.. اتجوز وخلِّف!

- آخر مرة أسمعك فيها تقولي اقفل المصحة دي! وبعدين انت عايزني أتجوّز ليه؟ عشان يبقى مصيري نفس مصير أبويا؟!

- يا عادل يا حبيبي، صوابعك مش زي بعضها.. وبعدين أبوك...

- عم منير! لآخر مرة بقولك ماتفتحش الموضوع دا معايا تاني! كل حاجة تفضل ماشية بالظبط زي ما أنا عايز.. النهاية قرّبت خلاص.

خرج عم منير مُنكَّس الرأس من غرفةِ دكتور عادل، الذي أشعل سيجارًا بدأ ينفث دخانه بغضب، ثم أخرج من درج مكتبه صورةً لرجلٍ وامرأة في فرحهم وأطاح بالبرواز في الحائط. ثوانٍ مرّت وهو في حالة غضبه حتى تجسّد له الكائن ذو الأصابع الطويلة..



- والراجل الكبير ذنبه إيه؟ هتفضل لحد إمتى تحاسب الشخص الغلط؟!

- أنا عمري ما حاسبت الشخص الغلط.. كل واحد بيتحاسب بالشكل اللي يستاهله.

- بس أنا شايفك قاعد بتقدِّم رجل وبتأخر رجل!

- نصير! لما أبقى أحتاج منك مساعدة أو لو حسيت في يوم إني ضعيف هبقى أقولك.

***

كان الأستاذ سعد يبدو في حالٍ أفضل بكثير من الأيام والأسابيع السابقة، تأثير موسيقى محمد فوزي عليه أشبَه بالسِحر.

طلبتُ منه عدة مرّات أن أرى الصورة التي يحملها في يدِه، ولكنه كان يرفض دائمًا، يخبرني أنها صورة حبيبته التي بُدِّلتْ بأُخرى، يخبرني عن اشتياقِه إلى النور، يُخبرني عن أولاده الذين يتمنى أن يأخذهم بين ذراعيه ولو لمرةٍ أخيرة.

بدأتُ أتيَقَّنُ أن حالته لا تتعدى كونها (حالة زهايمر)، مجرد ضمور في خلايا المخ السليمة يؤدي إلى تراجعٍ مستمرٍ في الذاكرة وفي القدرات العقلية، ولكنني لا أرى أي شيء غير طبيعي في قدراته العقلية، ربما هو حقًا لا يريد أن يحكي لي كل شيء!

وربما هو خائفٌ من شيءٍ ما!

في الفترة الأخيرة بدأتُ أشعر بتعبٍ شديد، عقار الذهان أصبح



بلا جدوى إن كان ما أراه مجرد هلاوس، أراهم جميعًا نهارًا وليلًا، حنين أراها دائمًا تتأملني بلا كلماتٍ تقال، تراقبني بفستانٍ أسود يشبه قلبها، يُعاد في رأسي مشهد قتلها بالتصوير البطيء، لن أندم يومًا على ما فعلته بها، لن أندم يومًا على طعنِها، فهي تستحق عشرات أضعاف الألم. أرى ياسمين تبتسم في الليل، تأخذ بيدي إلى عالمٍ أفضل لم أعرفه إلا معها. أرى أمي وأبي والحزن يسيطر عليهما، بينما يارا تبتسم لي في حنان. عصفورة تجلس على ضفاف النيل تستمع إلى محمد منير وهو يقول «يونس في بلاد الشوق.. آه يا ولد الهلالي». أرى حتى مريم وتيا يعيشان حياةً سعيدة بعيدًا عن دائرة كوابيسي.

أيام أستيقظ كـ (يونس أحمد ليل)، وأيام أستيقظ (شريف باشا)، وأيام أخرى أستيقظ (فينسنت فان جوخ) ذو الفؤاد المحطم!

أنام لساعاتٍ طويلة، أحلامي يتخللها دومًا أشياءٌ لا أفهمها وأشخاصٌ لا أتمنى رؤيته.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أُغادر غرفة ديانا، اقترب مني عم منير وفي يدِه مفتاح صغير..

- جاهز حضرتك تشوف غرفة العزل؟

مشيتُ معه حتى وصلنا إلى غرفة العزل، أخذتُ منه المفتاح، قلبي كاد يخلع من بين ضلوعي من شدة الحماس والقلق، دلفتُ إلى الغرفة حتى تيبستُ في مكاني!



كانت هناك!

تجلس على الأرض، تضُم قدميها إلى صدرها وتنظر إلى الأرض، تبدو ذابلة، متعبة، مريضة، حزينة، إلا أنها جميلة بشكلٍ استثنائي كما عرفتها!

ياسمين..

ياسمين على قيد الحياة..

ياسمين لم تمُت..

ياسمين لم تنتهِ حياتها بالبئر!

ياسمين.. أمامي!

- ياسمين!

نطقتُ اسمها كطفلٍ ينطق اسم أمّه للمرة الأولى، لا أراها بوضوحٍ بسبب دموعي، إلا أنني أراها بوضوحٍ شديد.

رفعتْ رأسها ببطءٍ تنظر إليَّ كَمَن يكتشف المجهول، تُكذِّب عينيها غير مَصدِّقة بأنني أمامها حيٌّ أُرزَق، غير مُصدقة أنني عثرتُ عليها.

نظرتُ إلى عم منير الذي كان يقف عند باب غرفة العزل وعينيه يملؤها الأسى، ثم عدتُ بعينيّ وروحي إليها.. إلى ياسمين.

- ياسمين.. أنا يونس!

- يونس! أنا فاكرة الاسم دا..



- ياسمين، أنا يونس جوزك.. انتِ مش فاكراني؟!

- أنا مش فاكرة حاجة.. انت جاي عشان تديني الدوا؟

- لأ يا حبيبتي.. أنا جاي عشان آخدِك من هنا..

احتضنتُها فاختبأتْ بين ضلوعي تبكي رغم أنها لا تتذكرني، لا أعلم ماذا حَلَّ بها ولكنني أُقسم بأنني سأُصلح لها كل شيء.

ثوانٍ وسمعتُ صوت غلق باب غرفة العزل من الخارج، تلاه صوتُ دوران المفتاح!

صياحٌ متداخلٌ، أصواتٌ كثيرة ما بين نواح وهمهمة تتداخل في رأسي بلا رحمة، لا أستطيع أن أُميّز الأصوات ولا الكلمات، ولكنها حقًا تُرهقُني، تنتزع مني ما تبقّى من روحي..

تتشكّل تلك الأصوات وتأخذ شكلًا بشريًا على أقل تقدير، تمسك الأصوات بذراعي وتستدرجُني إلى غرفةٍ صغيرة لا هواء فيها، سوداء كتلك القطة التي كانت تسكن شارعنا في الماضي..

الغرفة لونها يتغير، تتحول الأضواء النيون إلى الأخضر ومِن ثَمَّ إلى لونٍ بنفسجيّ مزعج للعين، أسمع عزفًا شديد القُبح للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن يعلو إيقاعُها تدريجيًا بشكلٍ مُخيف ومُقبضٍ للروح، أُحاول أن أتماسك، أتكهّنُ في عقلي الباطن إن كان ما أراه وأسمعه الآن حقيقي أم أن كل هذا من صنع خيالي!

الموسيقى تعلو وتتخلل أوصالي فأستفيق للحظات، أراه أمامي.. أراه الآن بصورةٍ كاملة للمرة الأولى، بحلّتِه البالية وشعره الأحمر المائل إلى قليلٍ من الاصفرار، يقترب مني وفي يدِه اليُسرى قناع



لأرنب كثيرًا ما رأيته في كوابيسي، أما في يدِه اليُمنى حمل سكينًا يُصوبُه نحوي!

أصوات الأنفاس تتزايد، ولا أعلم حقًا لمَن تلك الأنفاس، أهي أنفاسي أم أنفاسه هو!!

- يونس.. انت لازم تمشي من هنا دلوقتي حالًا.. أرجوك!

- مش هسيبك هنا.. إحنا خلاص مابقاش لينا غير بعض!

- يا يونس، عشان خاطري سيبني وامشي!

- مستحيل.. انتِ علِّمتيني أحِبّك في الوقت اللي ما كُنتش عارف حتى أحِب نفسي!

- أنا بجد مش فاكرة أي حاجة.. بس عارفة إن المكان دا خطر عليك.

كانت الصرخة التي تبعتْ الجملة الأخيرة تفوق دَوِيَّ الرعد، سكن كل شيءٍ للحظات، وبعد ثوانٍ معدودة بدأتْ مخلوقاتٌ ذات وجه أرنب تبزغ من باب الغرفة، منهم مَن يمشي على قدميه ومنهم مَن يمشي على أربع مثل الكلاب، ملامحهم يصعب رؤيتها من كثرة الدماء التي تُغطي عيني!

الآن فقط.. أستقبل الموت كحبيبةٍ طال غيابها..

وفي اللحظة التالية سكن كُل شيء، وفتحتُ عيني لأجد دكتور عادل أسود يُراقبني في صمتٍ على فراشي بغرفتي، ولا أثر لياسمين!

- ياسمين.. ياسمين!



بدأتُ في الصراخ باسمها كالمجاذيب، لا أفهم ما يحدث حولي، لا أفهم أين ذهبتْ بعدما كانت بين أحضاني منذ قليل!

- ياسمين مين يا دكتور؟! اهدى بس كدا وفهّمني!

- إيه اللي بيحصل؟! أنا كنت في غرفة العزل.. ياسمين كانت هناك.. انت عملت فيها إيه؟! فان جوخ كان هناك.. والأرنب.. كان فيه أقنعة كتير!

- اهدى بس يا يونس.. ياسمين مين؟ وبعدين مش أنا قولتلك قبل كدا إن غرفة العزل ماحدّش بيستخدمها!

- انت مخبّي ياسمين هناك.. تعالى معايا أوريك!

- تعالى يا سيدي.. بس بعدها انت لازم تدخل غرفة التأمل.. حالتك بقى ما ينفعش يتسكت عليها خلاص.

قمتُ من مكاني بصعوبةٍ شديدة، استندتُ على دكتور عادل حتى وصلنا إلى غرفة العزل حيث كان عم منير في انتظارنا أمامها، أخرج دكتور عادل المفتاح من جيبه وناوله إليه:

- افتح الباب يا عم منير عشان الدكتور يرتاح!

فتح الباب، دلفتُ إلى الداخل، والمفاجأة كانت الغرفة خالية من أي شيء، خاوية كبَيتٍ مهجور!

رأسي يدور في أسى، أحاول أن أتمالَك أعصابي ولكنني لم أستطع؛ بدأتُ في الصراخ والنحيب بينما عادل يحاول أن يأخذ بيدي..



- كانت هنا.. والله كانت هنا!

- صدّقني يا يونس مافيش حد هنا.. فعلًا كان فيه مريضة اسمها ياسمين بس ماتت من فترة. خليني أساعدك.. أرجوك!

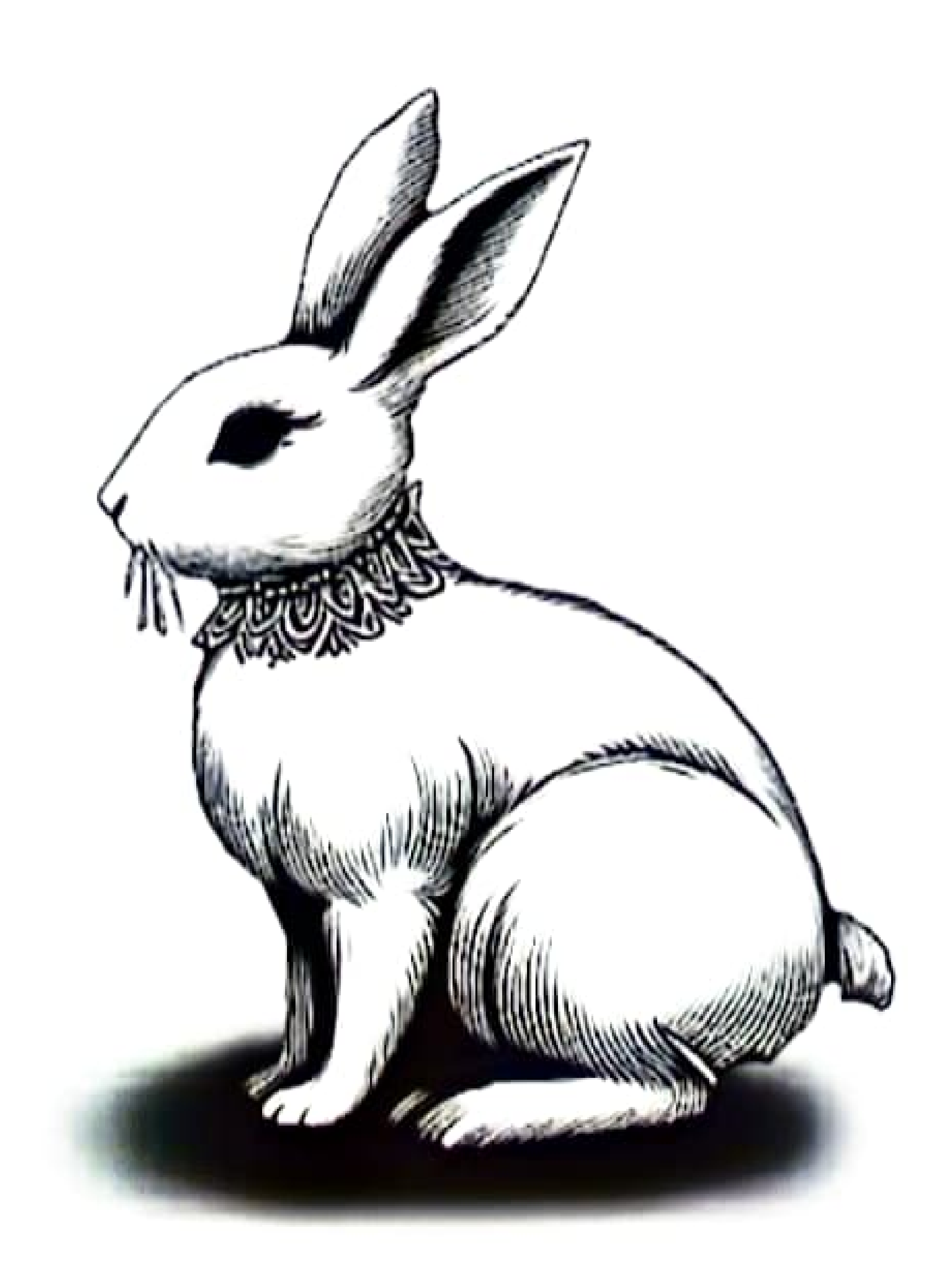
- أرجوك يا دكتور عادل.. سيبني أمشي أنا وياسمين وأوعدك ماحدّش هيعرف حاجة عن المصحة أبدًا!

- انت محتاج جلسة تانية في غُرفة التأمل عشان تصفّي دماغك.. وأوعدك هخليك ترتاح.



الفصل العاشر

هلاوس حقيقية





ظننتُ من قبل أنني شخصٌ مُنتهي الصلاحية، لم أكن أعلم أني لم أصلح يومًا كي أُفسد، ولدتُ لكي أعيش في العدم، أعيش في دوامةٍ منذ أن بدأ عمري.

تبعتُه طواعيةً إلى غرفة التأمل، مرة أخرى أسمع أصوات دقات قلبي، ولكنه تلك المرة يدق كساعةٍ مُتهالكة قاربتْ بطاريتُها على الموت، أسمع أصواتًا تخرج من ضلوعي، لا أكترث لها بقدر عدم اكتراثي لأي شيءٍ الآن، أصبحتُ أعيش في عالمين لا أعلم أيُّهما حقيقي وأيهما من نتاج خيالي!

طلبتْ مني طبيبتي في الماضي (الدكتورة رحمة) أن أستغِل خيالي لصالحي، فتخيلتُ نفسي ضابطًا، بل إنني عشتُ بعض الأعوام متقمصًا شخصية (الضابط شريف)، في الواقع لقد استغليتُ خيالي وذكائي في أشياءٍ كثيرة، ولكنني لا أعتقد أنني قد استغليتُ قُدراتي العقلية في الشر، والآن وبعد كل تلك السنوات التي أنهكتْني فيها الحياة، أصبَح خيالي هو مَن يتحكم فيَّ، أصبَح خيالي يُمسك بخيوطي وأنا مجرد عروس ماريونيت بين أصابعه التي لا ترحم.

أدخل مرة أخرى بداخل هذا الخزان الزجاجي، أشعر أنني في بحرٍ عميق وقد وصلتُ الآن إلى القاع، ولكن في هذا القاع لا وجود للرمال والصخور، بل يوجد أبيات شِعر، أقلام كثيرة جَفَّ حبرها، قصاصات ورق، والكثير من الأقنعة.

أنا الآن أسبَح في القاع، وها هي ياسمين تُشبه كثيرًا عروس البحر، تبتسم بينما تدور حولي في سعادةٍ لا مثيل لها، أسأل



نفسي:

«هو انتِ الحياة؟!»

كيف تحوّل العالم بأسرِه إلى هذه الدرجة من القُبح منذ أن غادرتِ حياتي؟!

أيها العالم، كيف أعيش فيك وكلانا يُخفي وراء ظهره سلاحًا للآخر؟!

أعوام طويلة يصعب حصرها، أصبحتْ الكوابيس جزءًا من حياتي، تتمسّك بي وتغمرني بلا رحمة، أصحو منها كل يوم موجوعًا، لاهثًا، غارقًا في ألمٍ أتمنَّى أن ينتهي، تحضر الكوابيس فتغيبُ الأنفاس، تقترب منِّي بأنفاسٍ كالثلج ولا أستطيع أنا الحَراك، فقط أغمضتُ عيني كما طلب مني عادل لأتحوّل إلى (فان جوخ)، وأعود إلى العام 1888...

في هذا العام، كنتُ قد تعرفتُ على فتاةٍ تُدعي (راشيل) في أحد الملاهي، والتي كانت السبب في أن يستيقظ (غوغان) صديقي في الثالث والعشرين من كانون الأول ليجدني أحمل سكينًا بين أصابعي وأنا في قمة حُزني.

كانت المُشادَّات تكثُر فيما بيننا، لكن لم يتوقع أن يصل الأمر إلى استخدام السلاح، وعندما كان غوغان يستعد لصَد ضَربَتي له -أو التي كان يظن أنها له- تحوّل مسار السكين لأقطع بها شحمة أُذني اليمنى. كنّا قد دخلنا قبل يومٍ في نقاشٍ حادٍ حول راشيل، وهل هي تُحبني حقًا، ولم يكن أمامي سوى أن أقطع أُذُني



لأقدمها هديةً إليها، والتي ما أن رأتها حتى فقدتْ وعيها.

بعد حادثةِ شَحمة الأذُن المُروّعة تم إدخالي مصحة عقلية في ولاية سان ريمي، وخلال إقامتي في المصحة أنتجتُ كميةً كبيرة من اللوحات، من ضمنها لوحتي الشهيرة (ليلة مضيئة بالنجوم).

في السابع والعشرين من تموز عام 1890، خرجتُ إلى حقل القمح، خلف بيتٍ ريفيٍّ ضخم، في قريةِ (أوفير شيرواز) الفرنسية الواقعة شمال باريس، وهناك أطلقتُ النار على صدري، وذلك بعد ثمانية عشر شهراً من معاناتي من اضطرابات نفسية وعقلية، كان ينتابني شعورٌ مُتزايد بالوحدة والقلق، وبِتُّ على قناعةٍ بأن حياتي ليست سوى فَشَل.

ذات يومٍ، نجحتُ في الحصول على مُسدسٍ صغير الحجم، يعود إلى صاحب المنزل الذي كنت أُقيمُ فيه. وكان هذا هو المسدس الذي أخذتُه معي حينما توجهتُ إلى الحقول، غير أنه لم يكن سوى مسدس جيب صغير الحجم للغاية ذو قوةٍ نيرانية محدودة، ولذا فعندما ضغطتُ على الزناد انطلقتْ رصاصة سرعان ما ارتدَّتْ إثر اصطدامها بأحد ضلوعي دون أن تخترق قلبي، ورغم ذلك فقدتُ الوعي وانهرتُ على الأرض.

وعندما حل المساء، عدتُ أدراجي وبحثتُ عن المسدس ثانيةً للإجهاز على نفسي، وبعدما فشلتُ في العثور عليه، عدتُ مُترَنِّحًا إلى الملهى أبحث عن راشيل، وهناك تم استدعاء طبيب لفحصي، كما استدعى شقيقي الغالي (ثيو) الذي وصل في اليوم التالي.



كان ثيو يتوقع أنني سأستردُ قوّتي، لكن في النهاية لم يتسَنَّ له فعل شيء، لأموت أنا متأثرًا بجراحي.

كتب شقيقي ثيو تفاصيل اللحظات الأخيرة في عمري قائلًا:

«ظللتُ إلى جوارِه حتى انتهى كل شيء. كان من بين آخر ما قاله أنّ: هذه هي النهاية التي أردتُ أن أمضي إليها».

فور أن دُفنتُ كفينسنت، عدتُ مرة أخرى (يونس) صاحب الستة عشر عامًا، أستعد إلى السفر مع جدتي كي نذهب -على حَدِّ قولها- إلى مَن سيساعدها على انتهاء كوابيسها.

استقلينا قطار النوم لأسوان حيث كان في انتظارنا سيارةٌ أمام باب المحطة، ذهبتْ بنا حتى وصلنا إلى منطقة غريبة تحيطها الجبال في كل مكان، كان في انتظارنا أمام بوابة المكان رجلٌ يجلس فوق رأسِه قردٌ صغير، رحَّب بجدتي وبي، ومشينا خلفه حتى دَلَفنا إلى خيمةٍ كبيرة الحجم يجلس بداخلها مجموعة من السيدات سُمر البشرة، يفترشون الحصير..

- نورتينا يا مدام صفية!

- نورك يا شيخة سعيدة. أنا جاية وكُلّي أمل إنك تساعديني!

- انتِ جاية مِن طرف ناس غالية أوي عندي.. واللي بعمله هنا مش بعمله غير للغاليين اللي زيك.. أنا في الطبيعي مش بسيب الأرض!

دخلتْ علينا طفلةٌ سمراء تبتسم في استحياء، واقتربتْ من سعيدة تدفنُ وجهها في جلباب أُمّها. أخرجتْ جدَّتي من حقيبتِها بعض



الحلوى وناولتهم للطفلة..

- مين الحلوة دي؟!

- دي بنتي عصفورة.. معلش بقى لسه صغيرة وبتتكسف.

- زي القمر ما شاء الله عليها. دا بقى يونس حفيدي..

دَلَف إلى الخيمة الرجل صاحب القرد، يحمل في يدِه عُلبة صغيرة الحجم، ناولها للشيخة سعيدة..

- شكرًا يا محروس!

شكرتْ زوجها وناولتْ العلبة لجدتي:

- العلبة دي جواها خاتم.. طول ما بتلبسيه الكوابيس مش هتعرف ليكِ طريق، وتبقى حياتك فُل الفُل.

أخرجتْ جدتي من حقيبتِها ظرفًا يمتلئ بالمال وناولتْه لسعيدة:

- ودي بقي حلاوتك يا شيخة سعيدة.. ربنا يجعل راحتي على إيدِك.

- والله ما كان ليها لزوم يا مدام صفية. تحبي أخلّي عصفورة تقرأ لك الودع؟! هي آه سبع سنين بس مكشوف عنها الحجاب..

- المرة الجاية بقى عشان نلحق ميعاد القطر.. تعبتِك معايا يا غالية!

كيف لا أتذكر أنني رأيتُ عصفورة من قبل؟!

كيف لا أتذكر هذا اليوم وأنني قابلتُ سعيدة ومحروس قبل



واقعة مقتَل سعيدة!!

كيف للعقل أن يختار تذكُّره لأشياءٍ وينسى أشياءً أخرى؟!

مَن جعل جدتي تذهب إلى هناك؟!

وما سر هذا الخاتم؟!

هل سعيدة كانت حقًا دجالة أم مُزارعة لا تترك الغيط كما أخبرتْني عصفورة عندما قابلتُها في المرةِ الأولى؟!

تتشابك الأحداث ولا أفهم، أو ربما لا أريد أن أفهم!

بعد تلك الذكرى، ذهبتُ إلى يوم وفاة جدتي..

تجلس في الفراش وعلامات المرض ظاهرة عليها وضوح الشمس في السماء، أجلس إلى جانبها أرمقُها بحُزن، بينما تجلس يارا في الناحية الأخرى منها مُمسِكة بيدها. قال الطبيب أنّ حالتها لا أمل في تحسُّنِها، وأنّ الأمر كله مجرد ساعاتٍ أو أيامٍ. منذ أشهرٍ كانت في أحسن حالاتها، أصبحتْ ذات قوة وطاقة فور عودتنا من أسوان، ولكن سرعان ما تبدَّل حالُها وأصبحتْ ضعيفة واهِنة لا تُفارق الفراش ولا تتحدَّث إلى أحد.

- خلي بالك على أخوكِ يا يارا.. يونس ولد كويس والله!

- ماحدّش هيخلّي باله من يونس غيرك.. وهتاخدي بالك مني أنا كمان!

- يونس ذكي وموهوب.. خلوا بالكم على بعض يا ولاد.

شعرتُ باختناقٍ شديد، فتحتُ عيني وبدأتُ أتحرَّك يمينًا ويسارًا حتى لَمَحني عادل، فأخرجني من الخزان..

- انتَ كويس؟!

- أنا كويس.. عايز أرجع أوضتي.. عايز أرجع الشغل.

- ويا سمين؟!

نظرتُ حولي، كانت الغرفة مُمتلئة بكائناتٍ عجيبة لها قرون مثل الثيران، لا يتحركون ولا يتكلمون، فقط يقفون خلف عادل ينظرون إليَّ!

أغمضتُ عيني وفتحتها عدة مرَّاتٍ ثم أجبتُهُ بكُل هدوء:

- ياسمين اللي أعرفها ماتت من زمان.

بضعة أيامٍ مرُّوا وأنا لا أبرح فراشي، حتى قررتُ أنني سأعود إلى مَرضَاي، إن كانت ياسمين غير حقيقية فمِن المؤكد أنّ هؤلاء المرضى حقيقيون ويحتاجون المساعدة.

أهتمُّ بسَعد، حتى أنني دلفتُ ذات صباحٍ إلى غُرفة (سيد) وأهديتُه علبةً صغيرة لتحسين مِزاجه، وأُهدِي صلاح مُكعبات السكر وأُمشِّط له شَعره ليَظل ساكنًا سعيدًا، وظلَّتْ ديانا هي الحالة الأقرب إلى قلبي.

- بيلعبوا في دماغك يا يونس!

قالتها ديانا وهي تتناول السيجارة الأخيرة في العلبة التي أحضرها لها عم منير منذ أيام.

- مش يمكن أكون بتخيّل؟! مش يمكن تكوني انتِ كمان مش موجودة!

- خليتهم يدخلوا جوا راسك ويتحكموا فيها.. مابقِتش عارف تفرَّق بين الحقيقة والخيال!

- وهو فيه فرق بينهم يا ديانا؟ وبعدين مين قال إن الحقيقة مش هي الخيال والخيال مش هو الحقيقة؟! مين قال إن الحقيقة هي الصحيان كل يوم الصبح ومتابعة الحالات وإنّي مستنّي عصفورة تولد؟! ليه ما يكونش زيتون هو الحقيقة! كوابيسي اللي بشوفها هي الحقيقة؟! انتِ ما عِشتيش اللي أنا عيشته..

- لما أبويا وأمي سابوا بعض زمان وبدأتْ الحوادث تحصلي كنت بدخل جوا دولابي وأقفل على نفسي وأستخبَّى من كل الناس، كان دولاب كبير أوي، كنت مَلياه لعب وحاجات حلوة.. كنت لما بدخل الدولاب دا بحس إني في أمان، وقتها كنت بفكَّر كتير أوي زيّك كدا، وأقول هو اللي بيحصل في حياتي دا حقيقي ولا لأ! ورغم إني ماكُنتش بلاقي إجابات أوي على سؤالي، إلا إن الإجابة الوحيدة اللي اتوصّلتْ ليها هي إن الدولاب دا هو أكتر مكان حقيقي في دنيتي. انت محتاج تعرف إيه الدولاب اللي هتلاقي يونس الحقيقي جواه.. المصحة دي ولا في أسوان مع عصفورة ولا مع ياسمين اللي مش عارفين أي حاجة عنها دي..

وبينما هي تتحدَّث، فتح علينا الباب عم منير والعرق يتصبَّب منه، يحاول أن يلتَقِط أنفاسَه بصعوبةٍ وهو يقول:

- حضرتك.. أستاذ سعد.. بيكَسَّر الدنيا!

استأذنتُ من ديانا وركضتُ إلى غُرفةِ أستاذ سعد والذي كان صراخه يُدَوِّي في أركان المصحة، فتحتُ باب زنزانته فوجدتُه يُحطِّم كُرسيه في الحائط. أمسكتُ به وساعدتُه على الجلوس بفِراشِه، أعطيتُه حُقنَةً مُهدِّئة فسَكَن في ثوانٍ معدودة.

- إيه اللي حصل يا أستاذ سعد؟!

- البيت.. اتمَسَح..

كان يُشير إلى رسمةِ الشباك المرسومة على الحائط بغُرفتِه، ولكنَّها كانت مَمسوحَة بعض الشيء وغير واضحة تمامًا، فأخرجتُ من جيبي قلمًا ورسمت له شِبَّاكًا أكبر، فارتسمتْ على وجهِهِ علامات الرضا في الحال، ولكنه ما إن هدأ حتى بدأ يلتفتُ حولَه في خوفٍ ويقول:

- الصورة.. الصورة!

تيَقنتُ على الفَور من أنه يقصد الصورة التي يحملها معه طوال الوقت والتي كان ظهرها يحمل كلمات أغنية محمد فوزي، على الأرجح أنَّها سقطتْ منه أثناء نوبةِ غضَبِه!

ابتسمتُ له وأخبرتُه أنني سأُحضِرها إليه في الحال، وبدأتُ في التفتيشِ عن الصورة، حتى لمحتُها أسفل بقايا الكرسي المُحطَّم.

أمسكتُ بالصورة بين أصابعي أنظر إليها بفضول، فارتعشتْ أناملي لتسقُط الصورة مني وأسقُطُ أنا إلى جانبها..



الصورة لسيدة جميلة في العشرينات من عمرها..

الصورة لسيدة تدعي منال، أعرفها حق المعرفة..

منال، تلك السيدة بالصورة هي أمي!

بكل ما تبقّى بداخلي من قوةٍ نهضتُ من الأرض ونظرتُ إلى عينيه؛ كيف لي أن أنسى عينيه التي تشبه تمامًا أعيُن أختي يارا!

كيف لي أن أنسى صوتَهُ حتى لو تغيَّرتْ ملامحه بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على رؤيتي له!!

كيف أنسى رائحته حتى لو تغيّرتْ بفِعل جلوسه لأعوامٍ تحت الأرض!!

اقتربتُ منهُ وتحَسَّسْتُ وَجهه وهو لا يقول شيئًا ولا يعترض على ما أفعل، أعرف هذا الرجل حق المعرفة، الأستاذ سعد هو أبي، أحمد ليل!

أبي لم يمُت أم أنني ما زلتُ في حالةِ الهَلوَسة التي لا تنتهي؟!

ولكنني مُتيَقِنٌ مِن وجودِه، لقد عرَّفَني عليه الدكتور عادل وأنس، بل إنني رأيتُ عم منير وهو يساعده مِرارًا على تناول طعامه!

اقتربتُ منه وأنا ما زلتُ في حالة الدهشة المسيطرة عليّ:

- انت.. انت اسمك أحمد ليل؟!

- أحمد.. ليل!



- أيوا.. الاسم دا مش بيفكرك بأي حاجة؟

أمسكتُ الصورة ووضعتُها بين أناملِه وسألتُه:

- اللي في الصورة دي اسمها منال.. صح؟!

- منال.. حبيبتي.. ماتت.

- انت مش عارف أنا مين؟!

- منال.. منال كانت بتحب محمد فوزي.

- أيوا كانت بتحبه. طب فاكرني؟ أنا يونس!

- يونس؟ يونس شريف؟!

الدموع تتساقط من عينيَّ وأنا أسمع اسمي يُنطَق من شِفاه أبي بعد عشرين عامًا من الفراق.

حكتْ لي أمي في الماضي عن يوم ولادتي وأن أبي كان يريد أن يُسمّيني (شريف) لأنه كان لديه صديقٌ قديم يُحبّه يُدعى (شريف)، أمّا أُمي فكانت تريد أن تُسَمّيني (يونس) تيمنًا بنبيّ الله (يونس عليه السلام). اشتَد الجِدال بينهما فما كان إلا أنّ (يارا) -ورغم صِغر سِنّها في ذلك الوقت- اقترحتْ اقتراحًا يُرضي الطرفين:

- سمّوه الاسمين.. يونس وشريف.. فيها إيه؟

وقد كان، أصبح لي اسمًا مركبًا، (يونس شريف أحمد ليل).

عدتُ برأسي مرة أخرى إلى غرفةِ أبي بالمَصَحَّة، لديَّ المئات



من الأسئلة التي أريد طرحها على عادل أسود.. كيف لم يمُت أبي؟! ماذا يفعل هنا؟!

أين كان طوال العشرين عامًا الماضية؟!

ماذا حدث له؟! لماذا أنا هنا حقًا؟!

ولكنني لن أقول شيئًا له الآن، ليس قبل أن اعرف إن كانت ياسمين موجودة أم من مجرد نتاج عقلي.

- بابا.. أوعدك إني هخرَّجَك من هنا!

- أحمد.. ويونس.. يمشوا من هنا؟!

- هنمشي يا بابا.. هنمشي ومش هنسيب بعض تاني.

***

يومان مرُّوا ولا أثر لياسمين، أشعر بوَعكةٍ صحيّة تؤثّر على رأسي وحتى على حركتي، ولكنني أُحاول أن أُقاوِم كثيرًا. أُمارِس عملي في المصحَّة بشكلٍ طبيعيّ كعادَتي اليومية، ولكنني أعرف أنِّي لستُ على ما يرام.

في مساء اليوم الثالث، بينما أنا جالِسٌ أتناول بعض القهوة كان هناك مَن يستأذِن لدخول الغرفة، كان عم منير هو الطارق، كان أقرب ما يكون إلى الأشباح؛ عينيه حمراء كالدم وحركته تُشبِه الموتى الأحياء.

ساعدتُه على الجلوسِ وأحضرتُ له بعض الماء وجلستُ أمامَه في صمتٍ لا يقطعه سوى الصمت..



- بتتعب نفسك في الشغل انت يا عم منير.. يا راجل خدلك إجازة!

- ما عادش ينفع يا دكتور.. أنا خلاص بموت.

- بعد الشر عليك يا راجل يا طيب.. انت بس محتاج ترتاح!

- الموت مش شَر يا دكتور.. الشر هو اللي أنا عايش فيه جوا المكان دا.

- أنا بشوفك بتتعامل إزاي مع العيانين.. حنيِّن وبتراعي ربنا مع كل الناس!

- إلا حضرتك يا دكتور.. إلا حضرتك يا يونس يا ابني.. أنا ما قدَّرتِش مُساعدتَك ليا يوم ما اديتني الدوا.. والفلوس اللي على طول بتديهالي..

- أنا مش فاهم حاجة!

- أنا ما أقدَرش أتكلم.. ما أقدَرش أخون الإيد اللي عايش من خيرها طول عمري.. بس انت عُمرك ما أذيتني، فأنا هقولك حاجتين ومن بعدها انت حر في خطواتك.. أول حاجة بلاش تاكل تاني من الأكل بتاع المصحة..

- وتاني حاجة...؟!

- ياسمين.. ياسمين عايشة يا دكتور.. انت ما كُنتش بتتخيّل زي ما دكتور عادل قالك.

- هي فين يا عم منير؟ ألاقيها فين؟ والأكل ماله؟ عادل عايز مني إيه؟!

- والله ما هقدر أقول ولا كلمة تانية.. سامحني يا يونس يا ابني!

ربَّتَ على كتفي ثم خرج من الغرفة يجُرُّ قدميه وأحزانَه وراء ظهرِه.

قد أكون مريضًا، قد أكون مُتخيِّلًا لأشياءٍ لم ولن تحدث، ولكنني على يقينٍ أنني أسير في الاتجاه الصحيح الآن، شعور بداخلي يُخبرني أنني أصبحتُ أسيرًا للهلاوس منذ زمنٍ بعيدٍ وأنَّني أخيرًا سأمشي على خُطى الطريق الذي كان يجب عليَّ اتباعه منذ زمنٍ بعيد.

الهلوسة هي إحساسٌ يشعر به الشخص بغياب المؤثِّرات والمحفِّزات الخارجية المُسبِبَة لذلك الإحساس. الهلوسة من الممكن أن تحدث بأي طريقة حِسيَّة، سمعيَة، بصرية أو غير ذلك.

الهلوسة السمعية (Auditory Hallucination)

هي سماعُ أصوات، وبصورةٍ خاصة أصوات لأشخاصٍ، مِن غير وجود مصدر لهذا الصوت في العالَم الحقيقي. قد يسمع المريض أشخاصًا يتحدَّثون مع بعضهم أو شخصًا يتحدَّث إليه ويُخبره بالقيام بأمرٍ مُعيّن، بالرغم من عدم وجود أي شخصٍ آخر معه.

الهلوسة البصرية (Visual Hallucination)

هي رؤية شيءٍ غير موجودٍ في البيئة المحيطة، مثل رؤية أشياءٍ أو

أشخاصٍ أو أضواءٍ غير موجودة في الواقع. مثلًا قد يرى المريض حشرة على يدِه وهي غير موجودة، وقد يرى ومَضات ضوئية وبُقع مُلوّنة، وقد يرى المريض أشخاصًا يعرفهم وهم في الواقع غير موجودين.

الهلوسة اللمسية (Tactile Hallucination)

الإحساس بتلامس مادي مع شيءٍ غير موجود في الواقع. واحد من أنواع الهلوسة اللمسية أن يشعر الشخص بوجود حشرة تزحَفُ فوق أو تحت جلده، كذلك قد يشعر المريض بوجود شخصٍ يقوم بلَمس رأسِه مثلًا بالرغم من عدم وجود أي شخص. وهناك أنواع أخرى من الهلوسات، مثل (الهلوسة التنويمية) التي تكون قبل النوم، والهلوسة الآمِرَة التي تُعطي أوامر للمريض للقيام بأمرٍ ما.

هل حياتي كلها سلسلة من الهلاوس المتكررة؟ هل كوابيسي في الأساس هلاوس؟!

مَن أكون؟!

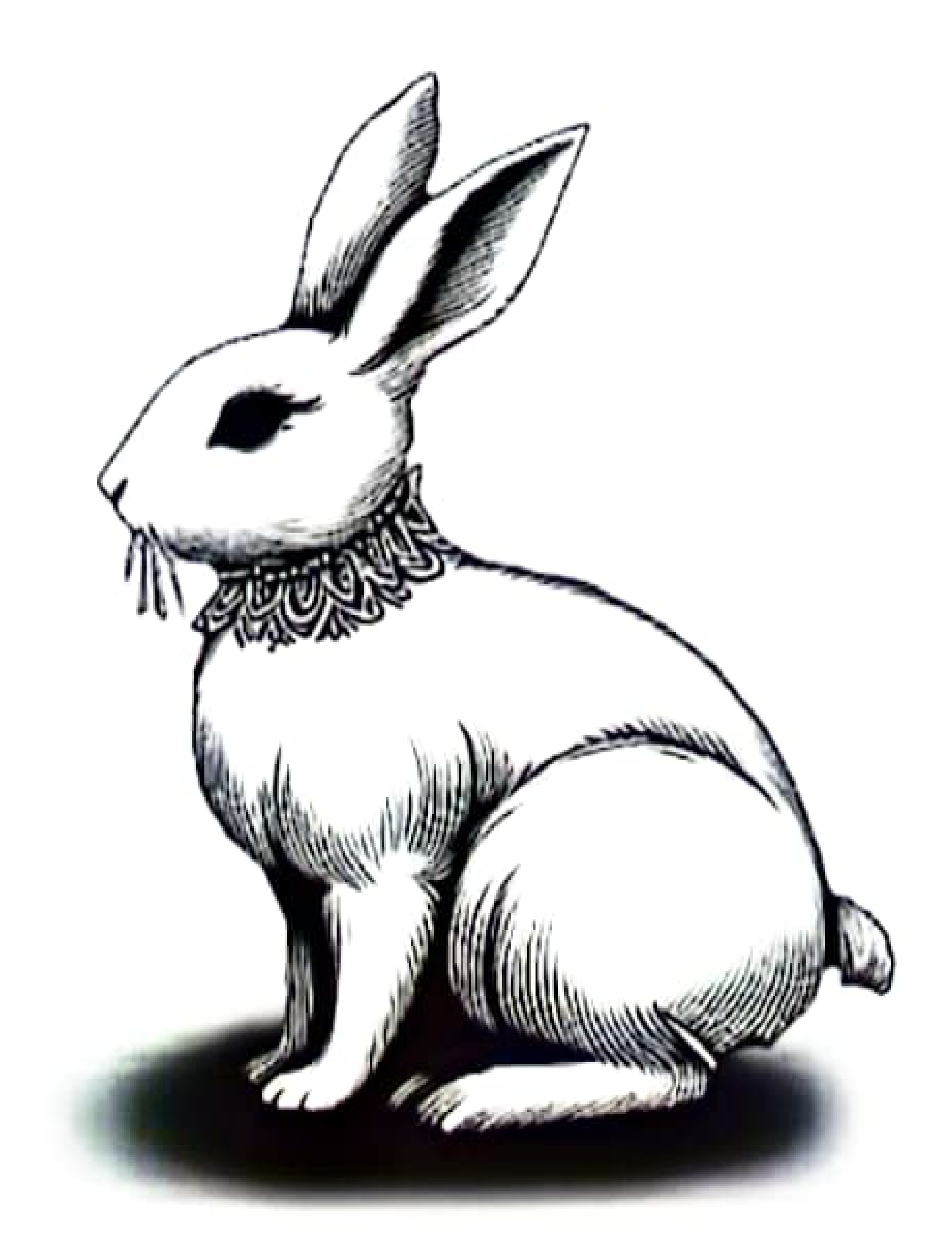
مَن أكون؟!

مَن أكون؟!



الفصل الحادي عشر

كوابيس قبل النوم





امتنعتُ عن تناول الطعام تمامًا لمدةِ ثلاثة أيام، أعطاني عم منير بعض أكياس (الشيبسي) وبعض (البسكويت) والذي كان يحتفظ بهم لنفسه ليتناولهم خلسة بعيدًا عن أعيُن دكتور عادل الذي كان يُنبِّه على الجميع عدم تناولهم أي شيء سوى الطعام الذي يتم إعداده داخل المصحة. أملأُ معدتي بالكثير من الماء، أشرَبُ كثيرًا حتى تمتلئ معدتي، كنتُ أقوم بإلقاء محتويات الطبق في الصباح والمساء في الحمام حتى لا يرى عادل محتوى الطعام ويبدأ في الشك بي.

خلال تلك الأيام كانت حالتي تختلف، لن أقول أن ما يحدث لي يُسمي تحسُّنًا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنني على الأقل أُسيطِر بعض الشيء على نفسي؛ لا أرى هلاوس، لا أسمع أصواتًا في أُذُني، أصبح ذهني أصفى بعض الشيء ولكنني ما زلتُ لستُ على ما يرام تمامًا.

جلستُ في غرفتي، أكتبُ جوابًا قد لا يراه أحدٌ غيري، كتبتُ فيه كل شيءٍ عني، حكيتُ كثيرًا عن يونس، يونس الطفل الضعيف الذي كان يحتمي وراء زيتون الذي لم أعرف يومًا ماهِيَّته الحقيقية؛ كل شخصٍ رأى زيتون بالشكل الذي يُناسب تفكيرَه ويُرضي روحه، هناك مَن قال أنه شيطان، وهناك مَن قال أنه قرين من الجن، والبعض رأى أن زيتون ليس سوى صديقًا خياليًا من نَسجِ خيالي. كتبت في الجواب عن حنين وعن ياسمين، كتبت عن أبي وأمي، عن شعوري الدائم بالضياع لعدم معرفة مَن أنا حقًا، لرغبتي الشديدة في الحياة ورغبتي المُستميتة في الموت.



في الليلة السادسة من توّقفي عن تناول الطعام، استيقظتُ مع انتصاف الليل على صوتٍ مُفجِعٍ، يُشبه الصراخ ولكنه أشد قوة، فقمتُ من مكاني مُسرعًا مُرتديًا أول ما امتدتْ إليه يَدي من ملابس.

في الأسفل كانت المصحة تبدو مختلفة، الزنازين كلها مفتوحة على مصراعيها، يخرج من داخلها نورٌ أحمر غريب، بينما تحوّلتْ الإضاءة في البهو إلى اللون الأخضر المختلِط بالبنفسجيّ، أصوات مزعجة تقتحم أُذُني، ولكنني على يقينٍ بأنها أصواتٌ حقيقية وليست من نتاج عقلي. مشيتُ حذِرًا تجاه الصوت، أشعر به يخترق جسدي ولكنني لا أتوقَّف عن السَّير تِجاهه.

كان الصوتُ يأخذُني إلى غرفة التأمل، كانت تبدو مختلفة تمامًا، الغرفة تحوّل لونها إلى الأحمر الدموي، كان عادل يجلس على مقعدٍ وثير، أمامه تمثال فرويد والذي تم نقله إلى غرفةِ التأمل، ينظر إليه بتَمَعُّنٍ شديد بينما تنبَعِثُ مِن أرجاء الغُرفة موسيقى أعرفها جيدًا، مقطوعات مختلفة لبيتهوفن كثيرًا ما سمعتُها في كوابيسي وهلاوسي .

فور أن دلفتُ إلى الغرفة أدرك وجودي وابتسم بتحدٍ:

- آسف لو الصوت خلَّاك تصحى من النوم.. كان لازم آخد بالي بما إنك بقيت بتنام من غير كوابيس اليومين دول!

- ولا يهمك.. أنا كنت صاحي.

- شخصية فرويد كانت دايمًا بتشِدّني.. كان بيقول إن الجنس



هو نقطة الضعف الأولى عند الإنسان، الجنس بيتحكم في رغبات الإنسان وسلوكه.. تخيل لما رغبة بسيطة عندك يترتب عليها كل حاجة في حياتك بعد كدا! والدَك مثلًا الأستاذ أحمد ليل والأستاذ سعد زي ما بنقوله هنا، لو كان قدر بس يتحكِّم في شهواته شوية ما كانش حصلّك كل اللي انت عيشتُه دا يا دكتور يونس! بس للأسف هو السبب في كل اللي جرا لك في حياتك واللي هيجرا لك لسه على إيدي!

- حلو إنك قررت تلعب على المكشوف!

- ومين قال إني كنت عايز ألعب على المستخبِّي قبل كدا؟! انت بس اللي بتحب لعبة القط والفار دي.. عامل زي أبوك بالظبط.. عمره ما كان بيعرف يعيش حياة طبيعية.

- أبويا يمكن كان بيعاملني وحش، ما كانش بيفهمني ولا يسمعني.. بس الأكيد إنه ما كانش بالوصف اللي انت بتقوله دا. انت عايز منه إيه؟ عايز مني أنا إيه؟!

- سامع نبرة قوة في صوتك على غير العادة يا يونس، أعصابك كمان باين عليها تحسُّن ملحوظ! واضح إن فيه حد قالك ما تاكُلش الأكل اللي بقدمهولك في المصحة، كنت دايمًا بقول إني مش بثق في حد زي منير، وللأسف أول مرة أطلع غلطان!

- كنت بتحُطلي كوكايين في الأكل ولا إيه؟ بما إن حبيبك فرويد كان بيعتبره علاج!

- كوكايين إيه بس يا يونس! دا أنا كدا أبقى بموّتك. انت



حياتك غالية عندي أوي. انت بقالك سنين بيتحطلك في أكلك magic mushrooms أو فُطر سِحري، دا بقي يا سيدي بيزوّد هرمون السيروتونين، بقالي سنين بتحكِّم في نشاط مُخَّك كأني ماسك الريموت بتاعك حتى مِن قبل ما أقابلك، بخلِّي أجزاء من مُخك تحفِّز وتشتغل بقوة وأجزاء تانية بخليها زي البيت المهجور. الفطر السحري دا أعظم اختراع لتحفيز الهلاوس، دا غير إنه طبيعي تمامًا، ببساطة يا يونس أنا خلقت جوَّاك عالم جديد عقلك مش قادر يستوعبه، دا غير إن الكوابيس بتاعتك دي من الأعراض الطبيعية.

- فكرة ذكية يا دكتور عادل، اخترت مادة قوية زي الفطر السحري وفي نفس الوقت ما تكونش قوية بالدرجة الكافية عشان تفضل تعذبني بالتصوير البطيء، أنا مذهول من كمية الشر اللي جواك.. بس ليه؟! إيه اللي ممكن أكون عملتُه ليك عشان تستمتع بتعذيبي أوي كدا؟! دا غير مراتي وأبويا اللي في المصحة هنا! انت مين؟!

- طب حتى خد بالك من الشبَه! أنا أخوك يا يونس...





القاهرة – 1999.

كنتُ قد انتهيتُ من جلستي مع دكتورة رحمة، تحدَّثنا كثيرًا هذا اليوم عن كيفية استغلال الخيال، كنتُ دومًا أستمع إليها باهتمامٍ شديد، أهتَّم بكل ما تقوله لي من تفاصيل، أهتَم حتى بصَمتِها ونظرات عينيها. كان أبي في انتظاري بالخارج لنذهب بعدها إلى المنزل.

خرجتُ فناوَلَني مفتاح سيارته:

- روح استناني في العربية يا يونس، هدخل أتكلم مع الدكتورة شوية.

- حاضر يا بابا.

دلفَ أحمد ليل إلى مكتب رحمة بعد مغادرتي للعيادة، ارتبكَتْ فور أن رأْتهُ وتظاهرتْ بالانشغال في مراجعة بعض الأوراق.

- إزيك يا رحمة؟!

- إزيك يا أحمد! يونس الحمد لله بيتحسِّن بشكل ملحوظ...



- أنا مش جاي عشان أتكلم عن يونس يا رحمة.. أنا جاي أسألك عن عادل!

- إحنا اتفقنا ما نتكلّمش تاني في الموضوع دا يا ليل! اللي حصل زمان كان غلطة بندم عليها كل ثانية بتعدِّي عليا في حياتي.. خليك في ابنك اللي محتاج مساعدة دلوقتي.

- وعادل يا رحمة! مش عادل ابني برضو؟!

- لا مش ابنك.. عادل اتكتب باسم جوزي.. عادل نجيب أسود!

- بس دا مش عدل! أنا عايز بس أشوفه!

- اللي مش هيبقى عدل هو إني أتفَضَح عشان ضعفت في يوم قدامك.. اللي مش هيبقى عدل إن نجيب يعرف إنه مش بيخلِّف وإن الولد اللي بيعمل عشانه كل حاجة في الدنيا مش ابنه. انت عارف إن نجيب كتب لعادل المصحة بِاسمُه؟!

- أنا عمري ما اتمنّيت إنّي أجرحك.. وعمري ما كنت بلعب بيكِ يا رحمة!

- إحنا الاتنين ما نستاهلش أي حاجة من اللي عندنا في حياتنا.. انت ما تستاهلش منال ولا أنا أستاهل نجيب.. زي ما قولتلك، حاول دلوقتي تاخد بالك من يونس.

***

عقلي لا يستوعب ما يسمع، عقلي يرفض أن يُصدّق تلك



القصة! أغوص في بحرٍ استُبدِل ماؤه بمادةٍ لَزِجة تمتصُّ الحياة تدريجيًا، كل ما بداخلي ينهار ولا أقوى على لَمْلَمَةِ بقايا روحي.

- انت كداب يا عادل.. كل كلمة قولتها من يوم ما رجلي دخلت المكان دا كانت كدب.. انت نفسك كدبة كبيرة بتحاول تصدقها.

- كان نفسي أقولك إنك صح، كان نفسي أقولك إنك لسه بتتوهِّم وإن الفُطر لسه مأثر على دماغك.. بس للأسف يا دكتور، كل كلمة قُلتها ليك حقيقة. كان نفسي أقولك إن نجيب أسود ما انتحرش.. وإني ما قتلتِش رحمة بإيدي. كل واحد فينا قتل حد بيحبه لما حَس إن الحد دا خانُه.. واضح إن الانتقام في دَمِّنا يا أخويا!

- فقررت إنك تنتقم من اللي عمله أبويا بإنك تحبسه في المصحة هنا؟! ما قتلتهوش ليه؟! ما قتلتينيش أنا ليه؟!

- الوجع اللي أبوك سَبِّبُه لأبويا نجيب أسود واللي سَبِّبهولي ما كانش ينفع يبقى حَلُّه إني أقتله وأقتلك.. كان لازم كل واحد فيكم يتعذِّب كل يوم ويعيش الوجع كل يوم. بالنسبة لأحمد ليل، كان حَلّه إنه يتخطف يوم رحلة الفيوم اللي أخدك فيها وانت صغير ويفضل مَرمي في الزنزانة لحد ما يعفِّن أو يتجنِّن.. وبالنسبة ليك انت، كل حاجة حصلتلك في حياتك السنين اللي فاتت كانت بسببي وبترتيب مني. أدوية الهلوسة اللي كنت بتاخدها أيام جوازك من ياسمين كانت مني.. مقابلتك لحنين كانت بتخطيط مني.. حتى عصفورة يا يونس، حكايتك معاها كانت بتخطيطي



أنا. في الأغلب الوحيدة اللي ما قدرتش أشتريها هي ياسمين.. الغبية حَبتَك بجد!

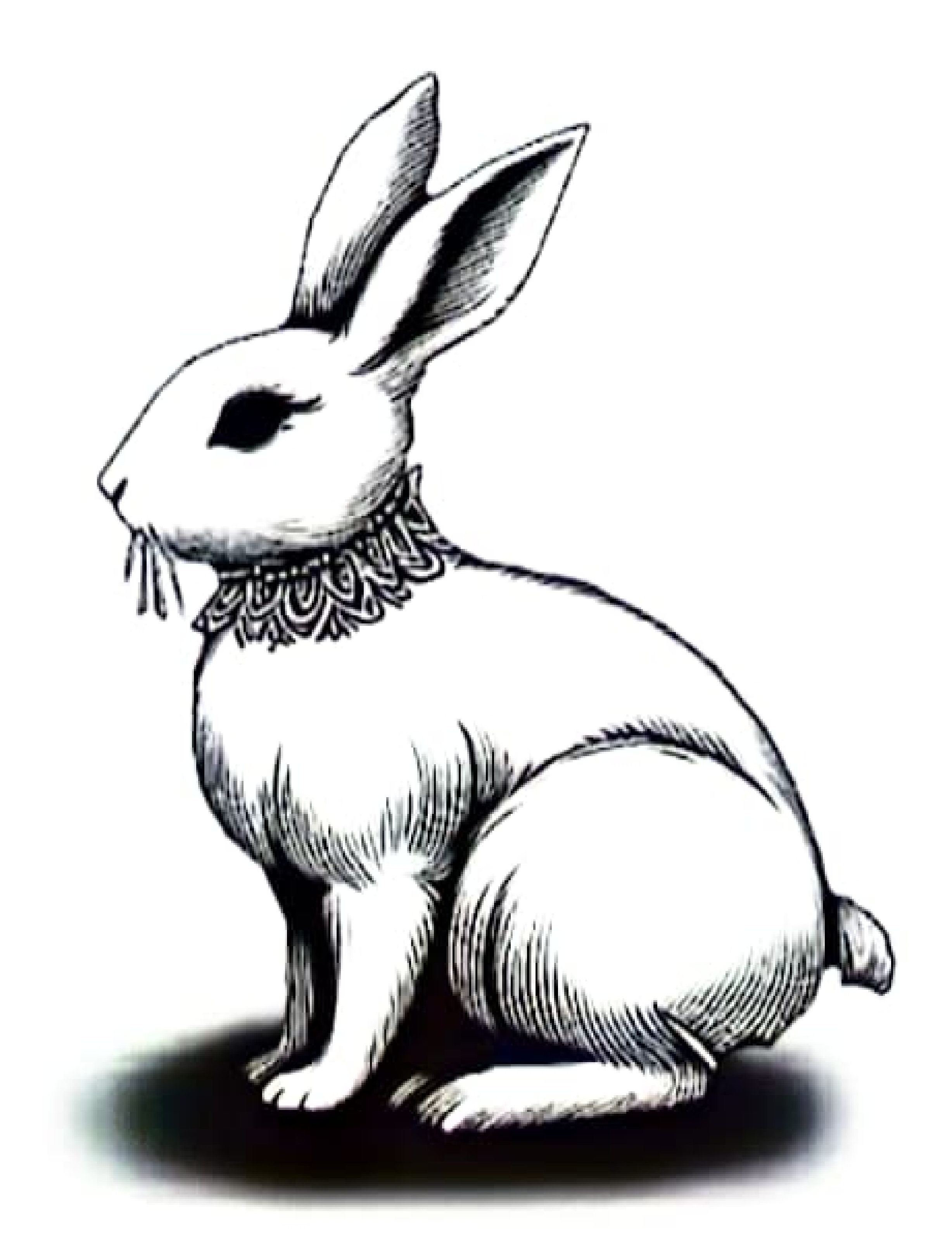
- عصفورة! يعني إيه؟! انت كداب.. عصفورة جاتلي زمان لما أمها اتقتلت.. أكيد دي مش صدفة!

- لا، الموضوع ابتدى قبل كدا بكتير يا يونس...



الفصل الثاني عشر

شريط سينمائي هزيل







أسوان – 2018.

في قرية السماحة بأسوان، جلستْ عصفورة أمام منزلها الصغير تفتَرِش بعض الحصير، تُلاعب كلبًا صغيرًا كثيرًا ما يأتي للجلوس معها أمام منزلها، وبينما هي تلهو بسعادةٍ مع الكلب اقترب منها رجلٌ يرتدي ملابس في منتهى الأناقة، تعجَّبتْ لوجودِ رجلٍ في قريتهم التي لا يُسمَح للرجال بدخولِها، ولكنها تيَقَنَتْ من أنه صاحب سلطة ونفوذ وبإمكانه الدخول إلى أي مكانٍ يُريده.

- هو دا بيت الشيخة سعيدة يا شاطرة؟

- هو آه.. مين حضرتك؟!

- قوليلها عادل أسود.. هي عارفاني كويس.

دلفتْ عصفورة إلى المنزل لتخرُج سعيدة مُهرِولة وهي تُلقي عبارات الترحاب بعادل بكل احترامٍ وهَيبة.

- البلد كلها نوّرت يا دكتور.. كان نفسي أقولك اتفضل بس انت عارف القانون!

- عارف عارف.. غيري هدومك وهستناكِ عند باب القرية..



عايزك في شغل.

- عيوني يا باشا.. 5 دقايق وتلاقيني عندك.

نظرتْ عصفورة إلى أُمها بشيءٍ من الشَّك، تعلم أن أُمها تركتْ الدجل والشعوذة منذ سنواتٍ طويلة، تحديدًا بعد وفاة محروس، وتعلم أيضًا أن حياة أُمها الآن تتلخَّص فقط في الزراعة، فأثارتْ زيارته لها بعض الريبة في صدرها.

دلفتْ سعيدة إلى المنزل لترتدي جلباب المناسبات، وأخبرتْ عصفورة أنها لن تتأخَّر عندما خرجتْ لها وأنها ستُفهمُها كل شيءٍ عندما تعود.

كان عادل في انتظارها في سيارة فارهة، ابتسم لها ودعاها لدخول السيارة:

- واحشنا يا عادل باشا.. قاطع بينا!

- الله يخليكِ يا أم عصفورة. أنا عايزك في شغل!

- أنا عيوني ليك يا ابن الغالي!

- وهنحتاج عصفورة في الشغل دا كمان.

- خلِّي عصفورة بعيدة عن الشغل اللي بينا يا عادل باشا!

- انتِ نسيتِ نفسك يا سعيدة ولا إيه؟! فوقي! أنا عادل أسود.. يعني بتليفون مني أخليكِ تكملي اللي باقي من حياتك في السجن!

- ليه كدا يا باشا؟ أنا طول عمري خدامتك!

- يبقى تسمعي اللي هقولك عليه وتنفذيه بالحرف الواحد!

كيف لعصفورتي أن تكون جزءًا من خطةٍ حقيرةٍ وضعها هذا الكائن؟! كيف لي أن أعيش في عالمٍ لا ينتهي شَرُّهُ ولا يَصدُق خَيره؟! كيف لي أن أُدرك ما الحقيقي وما الخيالي في حياتي بعد الآن؟! لم أكن من الظالمين، ولم أكن من هؤلاء الذين يعيشون ليعيثوا في الأرض فسادًا. نعم، كنتُ أنانيًّا في أوقاتٍ كثيرة، لا أُفكِّر سوى في نفسي، ولكن هل حُبِّي لنَفسي أُقابله بِكُرهٍ لكل تفاصيل الحياة؟!

كيف لعصفورة أن تكون طرفًا في ألَمي؟! كيف تنبتُ زهرة الشر من الشجرة الصالحة؟! أهي حقًّا شجرةٌ صالحة أم هذا ما أردتُ أن أراه فقط؟!



أسوان – 2018.

- أنا عايزِك تجيبي خاتم.. خاتم زي اللي إديتيه لجدة يونس زمان.. عايز خاتم يدمرله حياته ويبقى فاكر إن الخاتم دا هيبقى سر السعادة بالنسبة له.. فاهمة يا سعيدة؟

- فاهمة يا باشا.

- اللي هيديله الخاتم دا هتبقى عصفورة بنتك.. هتقوله إن الخاتم دا فيروز هيجيبله الحظ، وكلمتين كدا.

- بس هي عصفورة هتشوفه فين يا باشا؟! وإيه اللي هيخليه يسمع كلامها؟!

- الخطة كلها سيبيها عليا أنا.. المطلوب منك الخاتم، وأنا أول ما أبقى جاهز هقولك على وقت التنفيذ.





القاهرة – 2018.

- نقول مبروك ولا إيه؟!

- نفسي أعرف أنا بسمع كلامك ليه يا عادل!

- عشان بتحبيني يا روحي!

- وهو عشان بحبك هتخليني أتجوّز واحد تاني؟! انت مُقتنع؟!

- حنين.. كل اللي مطلوب منك إنك تفضلي تحطيله اللي بديهولك في أكله.. أنا كاتبلك الجرعة وكل حاجة.. وأوعدك إن أول ما تسافروا أسوان كل حاجة هتخلص بسرعة. أنا عملت كل حاجة عشان يونس يتنقل أسوان، الخطة بتاعتي لازم تمشي زي ما أنا مخططلها.

- أنا نفسي أفهم دماغك! ما تقتله وتخلص ولا حتى تحبسه!

- الانتقام عامل زي القهوة يا حنين، لازم يتعمل على نار هادية عشان يطلع مظبوط..

يسرد عادل تلك اللحظات وعقلي يستقبل كلماته، يجتهد



ليستوعب، تنبش الكلمات في فصوص مُخي لكي يتَّسع إدراكي لما أسمع. كثيرًا ما سمعتُ عن نظريات المؤامرة أو أن يتَّحِد البعض للقضاء على شخصٍ لسببٍ ما، ولكن كيف لكل هؤلاء أن يتَّحدوا على أذيَّتي لأُحاسَب على جريمةٍ لم أرتكِبها وخيانةٍ لم أقُم بها؟!

في الليالي الأولى من زواجنا، كنتُ أُلقِي على عصفورتي قصائدًا لـ (هشام الجخ):

"نفسي أنام.. فينك!

يا أم الرمش عنقريب..

ما تدمَّعيش عينك

الفرح جاي عن قريب".

كانت تبتسم بحنانٍ حتى وإن كانت لا تفهم معنى الكلمات جيدًا.

في أيام شهر العسل، كنتُ أضُمُّ حنين إلى صدري، أُدخِّنُ فتتنفَّسُ دُخاني كَمَن يشتَّمُ رَحيق الورود. نستمع سويًا إلى أُغنيتِنا المُفضلة، تبتسم لي قبل أن تُقَبِّلني، تُغنِّي قائلة:

"Kisses on the foreheads of the lovers wrapped in your arms

You've been hiding them in hollowed out pianos left in the dark

Your lips،



My lips،

Apocalypse”...

غنيتُ وغَنُّوا، قلتُ وقالوا، والنهاية واحدة، أنا ووحدتي وأَلَمي أصدقاءُ مرة أُخرى.

تذكرتُ في يومٍ من الأيام، كنتُ تقريبا في السابعة من عمري، ذهبتُ مع أمي إلى مدينة الملاهي صباحًا، كانت الملاهي خالية تمامًا من أي شخصٍ باستثناء العاملين، وكانت أمي في أَوَجِّ سعادتها هذا الصباح حتى أنها اقترحتْ عليَّ أن نُجَرِّب معي merry go round لنركبها سويًا!

ابتسمتُ غير مُصدِّقٍ، كل مِنَّا امتطى حصانًا بينما نتناول بعض المثلجات في سعاد. كانت منال رقيقة ذات قلبٍ ذهبي، إلَّا أنها كانت في أغلب الأوقات تعيسة!

- مبسوط؟!

- أحلى يوم في حياتي.

- عايزاك دايمًا مبسوط يا يونس.. مافيش حاجة تقدر تكسرك أو توجعك.

- حتى العفاريت؟!

- خلِّي العفريت اللي بتشوفه صاحبك.. انت حتى ممكن تختارله اسم!



- اسم زي يونس ومنال كدا؟!

- ليه لأ! سمِّيه على اسم حاجة بتحبها، إيه أكتر حاجة بتحبها؟!

- بحب الزيتون، بحب الزيتون على البيتزا، وبحب سندويتشات الجبنة بالزيتون كمان!

- خلاص.. سمِّيه زيتون!

رغم كل شيءٍ ابتسمتُ، بل حتى إنني ضحكتُ كالمجاذيب الحائرين؛ كيف لشخصٍ أن يكون بكل هذا الشر؟!

- اليوم اللي أحمد ليل راح العيادة وفضل يتحايل على رحمة إنه يشوفني كنت أنا موجود وسامع كل كلمة بتتقال، وقد إيه يا آخي كرهت أبوك! حكيت لأبويا كل حاجة اليوم دا، طبعًا زي أي راجل نضيف ما صدَّقنيش، ضرَبني وقالي إني ابن حقير إني فكرت ولو للحظة إن أمي سِت خاينة، ولما لَقاني مُصِر إننا نعمل تحليل DNA اكتشف إني كنت صح.. الراجل الغلبان كل اللي قدر يعمله إنه يموِّت نفسه، ما عاتبهاش ولا حتى قالها إنه عرف أي حاجة. وصل المصحة في يوم الصبح بدري زي أي يوم وضرب نفسه بالنار.

أخرجَ عادل من جَيبِه مسدسًا صغيرًا ووضعه أمام عينيّ ثم أكمل:

- نفس المُسدس اللي انت النهاردا هتموت بيه.. انت وأبوك.

- أنا عمري ما كنت بخاف من الموت يا عادل، بالعكس.. دا حتى أنا والموت صحاب من زمان، أنا شُفت كل حد حبِّيته في

الدنيا دي بيموت.

وضع المسدس في جيبِه مرة أُخرى وبدأ يُصفِّق لي والجمود يُسيطر على ملامحه:

- شاعر أوي في كلامك يا يونس.. بس صدَّقني الكلام الحلو دا مش هينفعك تاني.

- صدقني زي ما بقولك، أنا مش خايف من الموت.. بس قبل ما تموّتني احكيلي باقي الحكاية.. كفاية إنّي عِشت مَضحوك عليا!

- حقك يا دكتور.. لما أبويا انتحر قررت إني أقتل أمي، أقتلها عشان كل الوجع اللي سَبّبتُه ليا وسَبّبته لأبويا، بس قبل ما أقتلها واجهتها وطلبت منها حاجة أخيرة عشان أسامحها، طلبت منها إنها تقنعَك بإنك انت اللي قتلت أحمد ليل، وبصراحة أمي طول عمرها دكتورة شاطرة ما اقدرش أنكر دا.. قلتلها إني عرفت كل حاجة وإن أبويا انتحر بسببها وإنها لو ما عملتش اللي أنا عايزه تستحمل بقى العواقب..

- وهي فعلًا أقنعتْني بدا، رحمة خلقت قصة كاملة أقنعتني أنا وأمي وأختي بيها...





القاهرة – 2000.

مَرَّ أسبوعٌ على حادثة اختفاء أبي، أو غَرَقِة كما قال البعض.

جلستُ أمام دكتورة رحمة والتي بدا عليها شحوبٌ شديد، ظلَّتْ صامتة لدقائقٍ كثيرة، تائهة في عالمها الخاص، وأنا أجلس على مقعدي لا أتحدَّث ولا أتحرَّك، كانت تنظر إلى السقف كثيرًا كَمَن يستحضِر فكرةً أو كَمَن يحلم في يَقَظتِه، ثم عادتْ لتنظُر إليَّ والغضب يتطاير من عينيها وقالت:

- ليه عملت كدا يا يونس؟

- حضرِتك.. أنا..

- كدا تخلِّي زيتون يساعدك تقتل بابا؟! مش إحنا اتفقنا إنك هتتحكم فيه مش هو اللي هيتحكّم فيك؟! ليه عايز تفضل ضعيف كدا؟!

- أنا ما عملتش حاجة.. كل اللي حصل إني نمت شوية ولما صحيت بابا ما كانش موجود على المركب وإيدي كانت كلها دم!

- وجالك قلب تنام بعد اللي عملته؟!



- إيه اللي أنا عملته؟!

- مش عارف؟! مش عارف إنك قتلت بابا وهو بيصطاد ورميتُه في المياه؟!

- ما حصلش...

- حصل.. انت اللي مش فاكر أو مش عايز تفتكر.. وأنا هساعدك عشان تفتكر..

كشريطٍ سينيمائيٍّ هزيل، تعود المشاهد مُشوَّشَة، بطيئة وغير مُتَّزنة.

عشتُ حياتي أسأل نفسي عن ماهيَّتي الحقيقية، لم أكن أعلم أن سؤالي كان يجب أن يكون عنهم، كان سؤالي يجب أن يكشِف كل ما لم أكتشفه طوال تلك السنوات. أنا مَن عاش أعوامًا في محاولةٍ فاشلة مني لأكتشف خفايا البشر أدركتُ أنني لا أعلم شيئًا عن الإنسان، كلهم خدعوني، ومكافأتي كانت الكثير والكثير من الكوابيس!

- الخاتم اللي أخدتُه من عصفورة أول مرة قابلتها جواه سحر أسود، من عمايل إيد الشيخة سعيدة.. الكوابيس يا يونس كانت بتدوّر عليك..

- أول مرة شفتك في مكتبك لاحظت إنك لابس خاتم شبه الخاتم بتاعي، بس وقتها قلت أكيد دي صدفة!

- بصراحة يا يونس، في لحظة من اللحظات حسيت إني خايف



منك. لما حنين اتقتلت قررت أسيبك تهرب بمزاجي، مافيش حد بيخرج من هنا يا يونس، أنا قلتلك قبل كدا، اللي بيدخل هنا بيعيش ويموت هنا.. بس أنا سيبتك تمشي عشان تستعد. أنا اللي خلّيت عصفورة تعملّك العيادة، وأنا اللي خلّيت لؤلؤ تجيلك تعمل الفيلم الهابط دا عليك، جواك حاجة بتخليك دايمًا تصدَّق الناس وتشوف الخير اللي جواهم حتى لو كان شِبه معدوم. أما بالنسبة للخاتم بتاعي فدا عمايل إيدين ونجي، طبعًا انت عارفها كويس!

- "مش كل اللي بيلمع دهب".

- إيه؟!

- ولا حاجة. اسمع يا عادل، انت حقك أخدته وزيادة، سيبني أنا والناس اللي هنا نمشي وأوعدك مش هتشوفني تاني. المرضى اللي هنا محتاجين علاج بجد، ويا ريت انت كمان تروح لحد يساعدك!

- تفتكر هسيبك تمشي يا يونس؟ طب تفتكر لو سيبتك تمشي هسيبك تمشي بمين معاك؟ أبوك؟ ولا ياسمين؟ ولا ديانا؟!

- ولو قلتلك إني هخرج من هنا بيهم كلهم هتعمل إيه؟!

- رغم البؤس اللي انت فيه، ورغم إنك تقريبًا خسرت كل حاجة، كنت دايمًا بحقِد عليك بسبب زيتون، كان نفسي إن نصير يكون في طوعي زي زيتون كدا بالظبط.. انت عارف إن أبوك كان زَبّنا؟!

- يعني إيه؟! وانت تعرف زيتون منين أصلًا؟!

- ميزة كبيرة إن الدكتورة النفسية بتاعت عدوّك تبقى أمك.

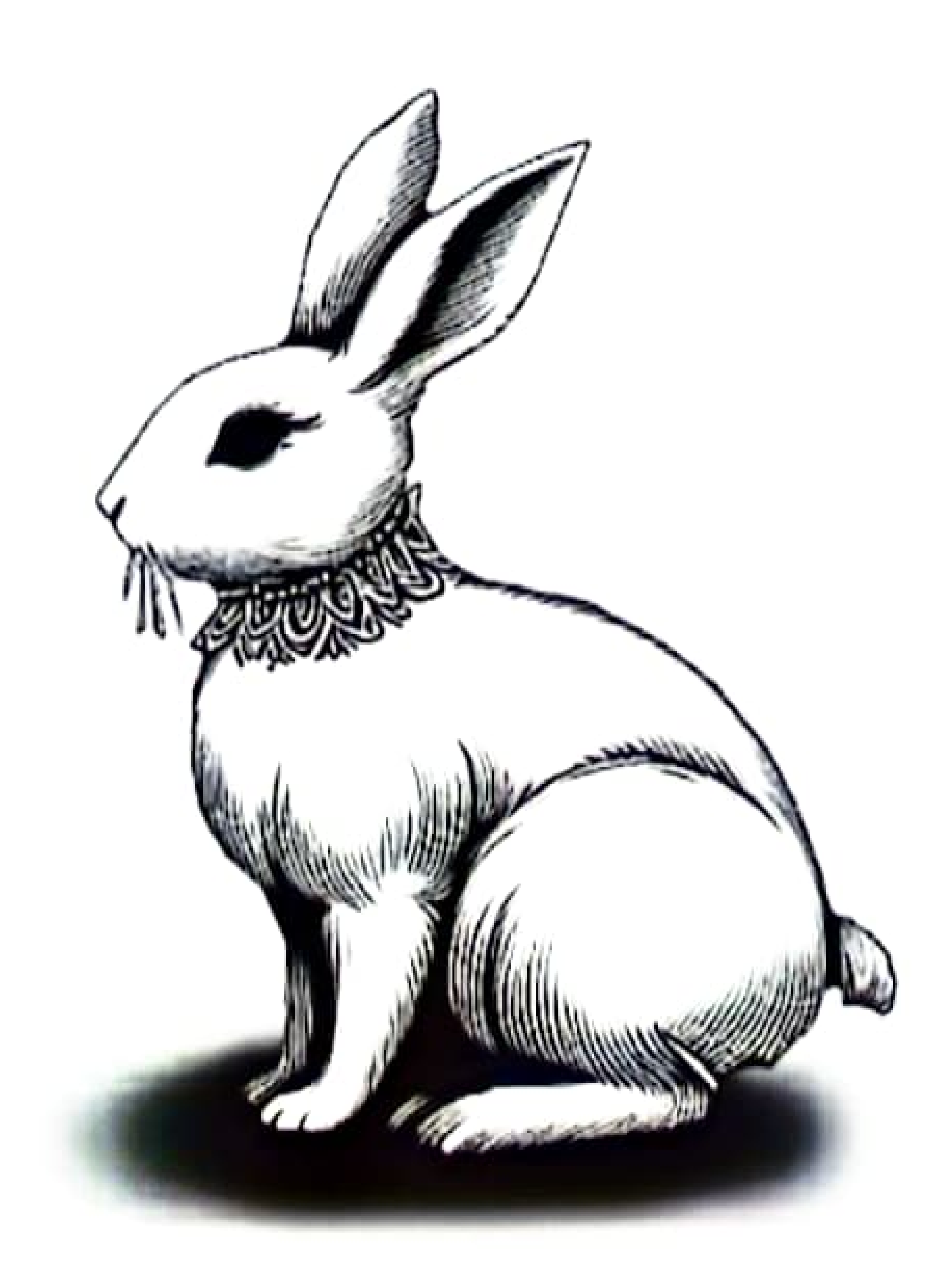
- نصير دا عفريتك؟!

- أنا بحب لقب قرين أكتر. رحمة حكيتلي عن أول مرة شافت فيها أحمد ليل.. تحب أحكيلك؟!



الفصل الثالث عشر

أسرار عائلية







القاهرة – 1977.

في إحدى شوارع منطقة وسط البلد، جلستْ الطبيبة الشابة رحمة تقرأ بعض الصحف كعادتها كل صباح، ترتشفُ بعض القهوة بينما صوت محمد فوزي يشدو في الراديو إلى جانبها. كانت قد افتَتَحتْ عيادتها النفسية منذ أسابيع قليلة، تعلَم أنها كانت طالبة متفوقة، تعلم أنها ذكية ولكنها لم تكن تعلم بعد قُدرتها على التعامل مع المرضى في الواقع، كانت قد تزوجتْ منذ عامٍ تقريبًا بأحد أشهر الأطباء النفسيين في مصر، الدكتور نجيب أسود والذي قام بتجهيز العيادة لها بالكامل. عرضتْ عليه مساعدته في مصحتِه الخاصة إلّا أنه أصَرَّ أنها يجب أن تبدأ رحلتها كطبيبة نفسية بشكلٍ مُستقِل لتكتسب الخبرة والحنكة في ممارسة تلك المهنة الصعبة.

كانتْ قد انتهتْ من تصفّح الجرائد لتدخل عليها المساعدة الخاصة بها تخبرها عن وصول حالتها الأولى، الأستاذ أحمد ليل..

- دكتورة رحمة، فيه حالة برا!

- شكرًا يا كريمة، خليه يتفضّل!



شعرتْ رحمة ببعض الارتباك، أخرجتْ من حقيبتِها مرآتَها الصغيرة لتتأكد من هَندَمةِ شعرها.

طرق الباب ودخل عليها رجلٌ وسيم يرتدي حُلَّةً شديدة الأناقة، لم تستطع أن تُداري انبهارها بأناقتِه، فابتسمتْ ومدَّتْ يدها لتُصافحه:

- أهلًا وسهلًا بحضرتك!

- صباح النور يا هانم، أنا أحمد ليل..

- حضرتك ليك علاقة بمحلَّات (ليل) اللي في وسط البلد؟

ابتسم في خجلٍ يشوبهُ شيء من الفخر، وقال:

- بتوعي يا هانم.

- الذوق في محلاتك تجنن.. أنا وكل صحباتي بنجيب كل حاجاتنا من هناك.

- تنوّريني في أي وقت، وليكِ كمان خصم انتِ وكل صحباتك.

- تشرب إيه؟

- لو هتشربي معايا يبقى ممكن قهوة على الريحة إذا تكرَّمتِ!

ابتسمت رحمة وطلبتْ من كريمة المساعدة أن تُعَد لهما فنجانين من القهوة.

حكى لها في هذا الجلسة كثيرًا عن نفسه، عن حياته وعن زوجتِه منال والتي تزوجها بأمرٍ من والده الراحل ليل باشا. حكى



لها عن كوابيسٍ تطارده في نومِه وصحوِه، حكى لها أيضًا عن صديقِه الخياليّ والذي يكرَه وجودَه كثيرًا، أخبرها بأنه كثيرًا ما يشعر بأنه أُصيب بالجنون، يشعر أنه يقف على حافة الهاوية ما بين الوقوع أو الوقوع، يحكي هو وتستمع هي بكل اهتمام. الأوائل دائمًا مُميَّزون، وقد وعدتْه رحمة بأن تساعده.

أيامٌ تمُر يتبعها أسابيع.. كان يومًا خريفيًا باردًا، وصل أحمد ليل إلى عيادة رحمة في ساعةٍ متأخرة من الليل، كانت قد فرغتْ من آخر حالةٍ لها هذا اليوم وتستعد لتُغادر العيادة.

عندما سمعتْ دقَّات باب العيادة تعجَّبتْ وذهبت لتفتح لتجد أحمد ليل أمامها بكامل أناقته المعهودة، إلا أن الحُزن يبدو عليه!

- أستاذ أحمد.. هو حضرتك ميعادك النهاردا؟!

- أنا آسف يا هانم لو جيت من غير ميعاد.. بس أنا مش كويس، ولو كنت استنيت لبكرة كان ممكن يجرا لي حاجة!

ابتسمتْ رحمة في ودٍ حقيقي ودَعتْه للدخول. لا تكذب هي على نفسها وتقول أنها غير مُعجبة به، اعتادتْ هي الصراحة مع نفسها طوال حياتها، حتى أنها بدأتْ بوضع مقارنات كثيرة بينه وبين زوجها الدكتور نجيب؛ نجيب يكبرها بسنواتٍ ليست بالقليلة، بينما سِنّها مُتقارب بعض الشيء من سِنِّ أحمد، نجيب دائمًا غير مُهندم لا يعطي أهمية لِما يرتدي أو لِما يقول، بينما أحمد شديد الوسامة يهتم بالتفاصيل الصغيرة، مثل ساعته، عِطره وحتى المنديل الذي يضعه في جيب جاكيت البدلة، كان أحمد الأفضل في كل شيء.



- الأدوية بقالها كذا يوم مش بتعمل معايا أي مفعول، حتى المنّوم مش بينيمني!

- الأدوية لوحدها مش كفاية طول ما بالك مشغول طول الوقت كدا.. خليني أقدر أساعدك!

- حقيقي آسف إني جيت، بس كنت محتاج إني أشوفك.. أنا لما بشوفك ببقى كويس.

- كلامك دايمًا جميل كدا يا أستاذ أحمد؟!

- شوفي يا رحمة، أنا واحد زباينه كلهم ستات، فالكلام الحلو صَنعتي، بس أُقسم لك بالله إن مافيش ولا واحدة عرفت تخطف قلبي بالشكل دا، أنا عارف إنك متجوزة وعارف كمان إني مش من حقي أقول الكلام دا، بس حقيقي كان لازم أقوله..

لم تقُل رحمة شيئًا بعدما انتهى من كلامه، شعرتْ بالخجل الشديد، ظلَّتْ على صمتِها حتى شعر بأن وجوده غير مرغوبٍ فيه، فقام من مكانِه ليُغادر العيادة. وبعد خطوتين شعر بيَدٍ تُمسك بأطراف الجاكيت وفور أن استدار إليها حتى رمَتْ بنفسها في حِضنِه ليَغرَقا سويًا في قبلةٍ جعلتْ الجو يتحوّل تدريجيًا إلى نهارٍ صَيفيّ على كوكبٍ آخر.

- سبحان الله يا آخي.. دي مش بس عالجته، دي كمان عالجتْ أبويا الغلبان.

- صدقني يا عادل، انت مش محتاج إنك تنتقم من حد عشان تحس إن كل حاجة اتحلّت، انت محتاج بس إنك تسامح!



- انت هتقدر تسامح حنين؟ هتقدر تسامح عصفورة؟

- حنين اللي حصل فيها يكفّيني عشان أسامحها.. وعصفورة مش عايز منها غير ابني. إني إقرر ما أأذيهاش بعد كل دا.. هو دا السماح يا عادل.

- إيه يا يونس! فاكر نفسك ملاك؟! عارف يعني إيه تدّي حد كل حاجة و في ثانية تاخدها منه؟!





القاهرة – 1978.

دلفَ نجيب أسود إلى منزلِه ذات صباح بعد أن انتهى من عملِه في المصحة فجرًا، كانت رحمة في انتظاره بالصالون والسعادة تبدو عليها، وفور أن رأتْه حتى احتضَنَتْه -وهو أمرٌ لا يحدث كثيرًا بينهما- ابتسم لها نجيب في ودٍ وسألها عن سِرِ سعادتها الشديدة..

- حضَّريلي أي حاجة آكلها يا رحمة عشان راجع ميّت من الجوع!

- عندي ليك خبر هيفرَّحك وينسيك التعب والأكل كمان!

- خير؟ خبر إيه؟!

- أنا حامل يا نجيب.. هتبقى أب!

- انتِ بتتكلمي بجد؟! بتتكلمي بجد يا رحمة؟! حامل بجد؟!

- والله حامل، وكلها كام شهر ووَلي العهد يشرّف..

- ياما انت كريم يا رب! أنا مستني اليوم دا بقالي سنين يا رحمة، كنت خايف أكون مش...



- إوعى تقولها.. دا انت سيد الرجالة يا حبيبي.. بكرة تشوف ابنك اللي من صُلبك بين حُضنك وتخاويه كمان!

- لا دا أنا آخدِك وننزل نتغدّي في كازينو النيل بعد الخبر العظيم دا!

- موافقة..

دخلتْ رحمة إلى غرفتِها لترتدي ملابسها، تلتقِطُ أنفاسَها أخيرًا بعدما تأكدتْ أن نجيب صدَّق كَذبتها وأنه لم يشُك لِلَحظَةٍ أن هذا الطفل ابنه.

ألقتْ نظرةً على نجيب خلسة، فرأتْه لأول مرة منذ زواجهما يُصلي.

***

- تحب أحكيلك عمل عشاني إيه؟ أحكيلك الفرحة اللي كنت بشوفها في عيونه كل مرة كان بيشوفني فيها؟!

- أي أب لازم يحب ابنه، بس في الحقيقة نجيب أسود كان إنسان مُختَل. لو دخلت قريت على النت اللي بيتكتب عنه هتعرف إنه حتى ما يستاهلش السعادة الكدابة اللي عاشها لما افتكر إنك ابنه..

- كل اللي قريته عنه كدب..

- لو معاك تليفونك ممكن أوريك! ولا بلاش نتعب نفسك، كل حاجة أنا كاتبها في النوتة بتاعتي: «نجيب أسود يقطع أيدي



مريض لديه مصاب بـ alien hand syndrome».. «الطبيب الشهير نجيب أسود يعالج مَرضاه بالتعذيب».. «نجيب أسود طبيب نفسيّ أم مُجرم؟!».. «حقيقة مَصحَّة الموت الأسود».. أكمل ولا كفاية؟

- كدب.. كل دا كدب.. أبويا كان عبقري.. التاريخ عمره ما هينسى نظريَّاته وطُرُقه اللي اتجرَّأ وجرَّبها في الوقت اللي فيه كل الناس بتقلد كل الناس..

الغضب يظهر جليًا على ملامح عادل رغم إدراكي الشديد بأنه يحاول -باستِماتَة- أن يُظهِر غير ذلك، يتصنَّع الهدوء، يتصنَّع كَونه صوت العقل في حديثنا، إلا أنني أرى نارًا تلتهمه وتلتهمني معه.

قطع تلك اللحظة صوتُ أبي الواهن، صوت أحمد ليل:

- أنا اللي أبوك يا عادل!

كان يمشي بصعوبةٍ شديدة، مُستندًا على عم منير الذي أصبح أشبَه بالمَوتى، ومن ناحية أخرى أمسكتْ ديانا بأبي.

أحمد ليل لم يغادر زنزانتهُ منذ سنواتٍ طويلة، ولكنني أشعر بشيءٍ من القوة بداخلِه يريده أن يقوم بهذا الحديث الذي طال انتظاره.

نظر عادل إلى عم منير بغضبٍ شديد جعل الرجل يعود خطوةً إلى الخلف خوفًا منه..

- إيه اللي خلَّاك تخرَّجهم من زنازينهم يا منير؟! انت اتجننت؟!



كانت المرة الأولى التي أرى بها عم منير غاضبًا إلى تلك الدرجة، وكأن صمتَ السنوات الطويلة جعلتْه أخيرًا يُريد أن يخرج ما بداخلِه..

- كفاية يا عادل.. كفاية اللي انت عملته السنين اللي فاتت دي!

- حتى انت يا منير؟! دا انت كنت موجود يوم ما أبويا قتل نفسه! انت عِشت الحكاية كلها يا منير!!

- وعشان أنا عِشتها بقولك دلوقتي كفاية اللي حصل، كفاية كل اللي ماتوا يا ابني.. حق الدكتور نجيب وحقك وصل.. عشان غلاوتك عندي بقولك إني عايز أشوفك عايش ومِتهَنّي بحياتك!

- نصير كان عنده حق.. أنا ما كانش ينفع أثِق في أي حد..

أخرج عادل مُسدسَه مِن جَيبِه وأطلق رُصاصَتَين استقرَّا في قلب عم منير الذي سقط مَيتًا على الفور، ليختَل توازن أحمد ليل الذي لم تستطع ديانا حمله وحدها، اقتربتُ خطوةً مِنه فأوقفني عادل بمسدَسِه وأمَرَني بالابتعاد عنهم..

- إيه! صعبان عليك؟! هو اللي جابه لنفسه.. الطلقة اللي جاية هتبقى في دماغك لو اتحرَّكت تاني!

لم أُبالِ لما قال، نظرتُ إليه بكُل كُرْهٍ ودَنوتُ إلى حيث يقبَع عم منير وإلى جانبِه أبي.

بدأ عادل يصرخ فيَّ ويأمرني بالابتعاد، ولكنني لم أُعِرهُ انتباهًا، كان عم منير قد فارق الحياة ولم أعد أستطيع أن أفعل أي شيءٍ



لإنقاذِه. حاول عادل أن يضغط الزناد ولكنه لم يستطع، شيءٌ ما أَوقفَه أو مَنَعه مِن فعل ذلك، شيءٌ خفيٌّ أمسك بيَدِه لينقِذني، أعرف جيدًا مَن يفعل ذلك.. زيتون!

- عفريتك واضح إنه قوي يا يونس.. بس مش هيبقى أقوى من نصير!

نظرتُ إلى جانبي حيث يقف زيتون في أحد الأركان وقد تشكَّل في صورةِ طفلٍ صغير، أومأتُ برَأسي إليه في امتنانٍ وشُكرٍ، فقال:

- ماتخافش.. زي ما خرجنا من هنا مرة هنخرج من هنا تاني.

بدأ زيتون في الركض، يقف أمام كل زنزانةٍ ليقوم بفتح بابها بحركةٍ بسيطةٍ من يَدِه.

ينظر عادل حَوله وهو غير مُصَدِّقٍ لما يرى، المرضى يتحرَّكون إلى البهو حيث نقف نحن في بطءٍ وخوف، أصوات مُتداخِلة تختَرِق الآذان، يُصوِّبُ عادل مُسدسَهُ ويقتُل كل مَن يقتِرب منه من مَرضاه، بينما أنا ما زلتُ جالسًا على الأرضِ بجوارِ أبي وجُثَّة عم منير، أرى الخوف واضحًا في أعيُنِ عادل، ولكنني أرى إصرارًا بداخلِه لا ينتهي.

زيتون ما زال في هيئةِ الطفل الصغير يجري ويفتح الزنازين على مصراعَيها كَمَن يلهو بلُعبة. ظلَّ عادل يقتُل كل مَن تراهُ عينيه مِن مَرضى حتى انتهتْ الذخيرة بمسدسِه، ألقى بسلاحِهِ بعيدًا ثم صاح قائلًا:



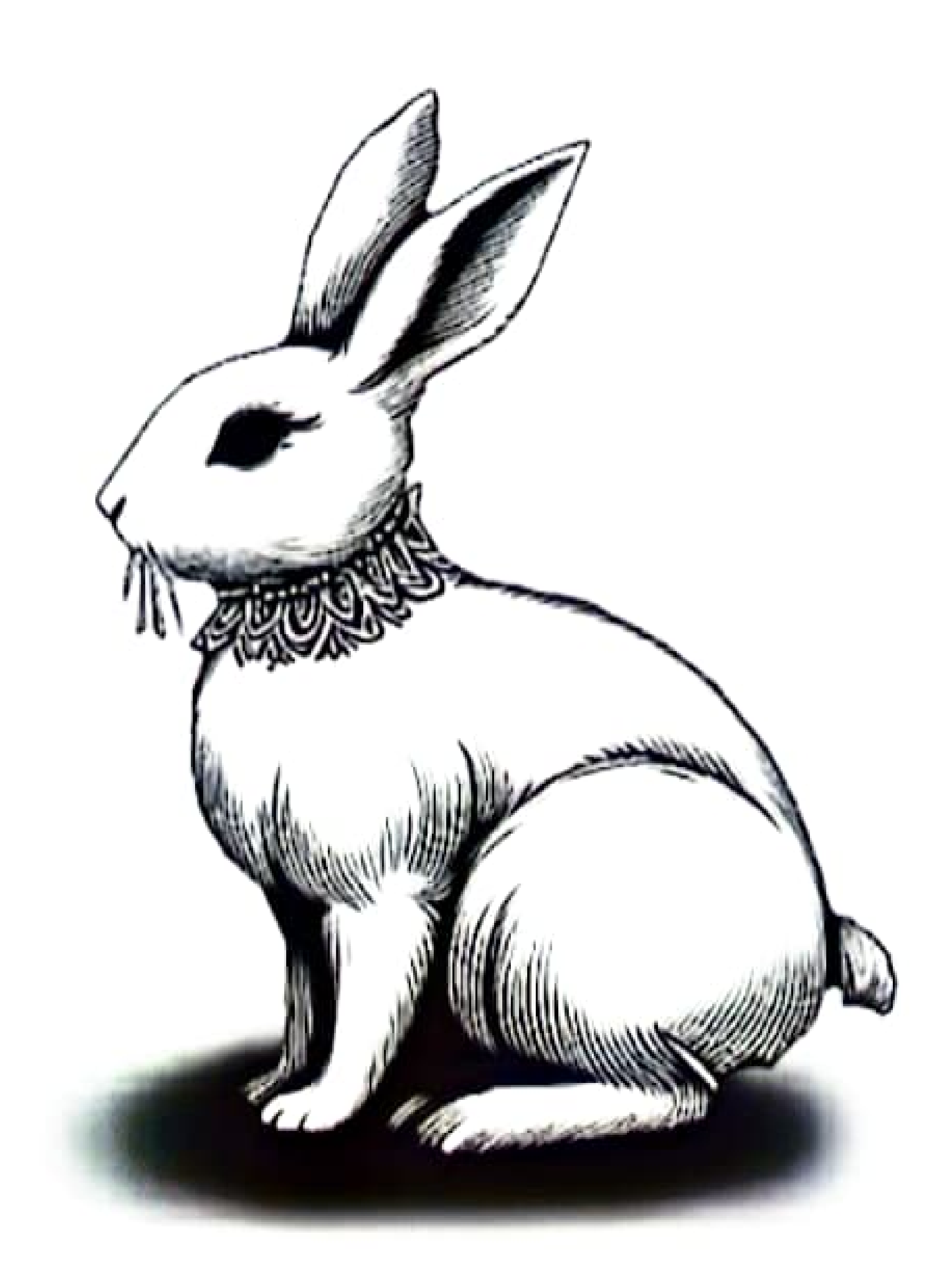
- نصيبير!!

وفجأة سكَنَ كُل شيء، توقَّف مَن بَقيَ على الحياةِ عن الحركة، وتحوّلتْ الأنوار كلها إلى اللون الأحمر، كأنك طَليتَ المصابيح جميعًا بالدماء!



الفصل الرابع عشر

مصير المصحة



كل إنسانٍ مِنّا خُلِق وبداخلِه كِيانٌ آخر، يتشكَّل هذا الكيان بطاقتِنا والتي يتغذى على مكنونِها، فالكيان يتحوّل إلى وَحشٍ إن تغذَّى على شُرورِنا وكراهيّتِنا لأنفُسَنا وللحياة في المُطلق، ويتحوَّل الكيان إلى رفيقٍ وسَنَدٍ إن تَغَذَّى على الحُبِّ والخيال، حتى إن كان الخيال هذا نتيجة ألَمٍ وخَيباتِ أملٍ مُتكرِّرة.

لا أعلم تحديدًا متى ظهر زيتون للمرة الأولى، لا أتذكَّر حتى المرة الأولى التي رأيتُهُ فيها، كل ما أعرفه أننا أصبحنا كيانًا واحدًا، يأخذ بيَدي في مِحنَتي، يُحارِب لأجلي بقوةِ جَيشٍ كامل عتيد، يرى ما لا أراه في نفسي، يرى ما لا أراه في البشر.

وإن كان زيتون هو صديقي الخيالي، فلعادل صديقٌ مِثله، ولكن ليس مِثله تمامًا.. صديقٌ يُدعى (نصير).

لا أعلم حقًا ما هذا الكائن، كائن ذو أصابع طويلة تمتد إلى الأرض فتُصدر صريرًا يتشابَه مع صوتِه في صوتِ تهشُّم الزجاج، يغطي جسدَه بالكامل بعباءَةٍ سوداء مُهترِئة لم تكشف من ملامح وجهِه سوى فَمِه البَشِـع والذي تتخلَّله أسنانٌ حادَّة أشبَه بأسنانِ القِرش.

ابتسم نصير وهو يقترب مني وبدأ في الالتفاف حولي في دوائر ليُبثَّ الرعب في قلبي:

- عظيمة الكوابيس، الحاجة الوحيدة اللي مالهاش حل ولا علاج.

- صدَّقني أنا شُفت اللي أبشَع مِنك يا نصير..



- شجاع يا يونس.. بس غبي!

- أنا أبقى غبي بجد لو خُفت منّك!

- ما ينفعش ماتخافش مني.. أنا كوابيسك يا دكتور!

فجأة تغيَّر شكله ليتحوَّل إلى حنين، تبتسم في شَرٍّ فأتصَبَّبُ عرقًا لرُؤيَتِها على قيد الحياة، يتغيّر شكله مرة أخرى لأرى عصفورة أمامي تحمل بين يديها رضيعًا يُشبهني كثيرًا، ما عدتُ أفرَح لرؤيةِ عصفورة كما كنتُ أفعل في الماضي، ليتحوّل مرة أخرى إلى العشرات من الأرانب كبيرة الحجم يلتفّون حولي، فأبدأ بجَذبِ أبي بعيدًا عنه بمساعدة ديانا.

بدأ عادل في الضحك بشكلٍ هيستيري وقال:

- بتعمل إيه يا يونس؟ انت لسه فاكر إنك ممكن تخرج من هنا؟! انت عمرك ما خرجت من هنا..

وبمجرد أن قام عادل بوضع يَده على خاتمه حتى انشقَّتْ الأرض مِن تَحتي لتبتلعني، بدأتُ في السقوط سريعًا في ظلامٍ دامِسٍ حتى سقطتُ بداخل زنزانة صغيرة، جسد بالٍ لا يقدر على الحراك، مُكبَّل بلا أصفاد، أنظر حولي فأرى العشرات من الرسائل تُزيّن الحوائط مكتوبة بقلم طباشير، كلها مُرسلة من فينسنت لأخيه ثيو. أُجاهد نفسي لأصل إلى تلك الفجوة الصغيرة لأرى ما وراءها، أُدخِل عينيّ بصعوبةٍ لأرى عادل يقف من الناحية الأخرى مُبتسمًا بِشَرٍّ وما أن رآني حتى قال:

- بخ!!



لأسقُط مرة أخرى عائدًا إلى أسوان، ولكن هذه المرة أنا مُكَبَّلٌ بالكثير من الحبال الغليظة، يلتَّف حولي العشرات من الأشخاص، يرتدون جميعًا اللون الأسود، يُردِّدون بعض العبارات غير المفهومة. كانت عصفورة من ضمن هذا الجَمع، اقتربتْ مني وبدأتْ في طعني بسِكّينٍ حاد في كل جسدي، أغمضتُ عينيّ مُتألِّمًا شاعرًا بكل طعنة، لأفتح عينيّ مُجددًا في بهو المصحة، محاطٌ بعَشراتٍ مِن الجُثث، أُمسِك بتلابيب أبي بكل قوّتي، بينما عادل يقف يشاهد ما يحدث لي مستمتعًا، ونصير قد عاد مرة أخرى إلى هيئتِه الدَّميمَة، ولا أثر لزيتون!

- خلينا نمشي يا عادل.. أستاذ احمد محتاج يروح مستشفى!

قالتها ديانا والدموع تملَأ أعيُنها.

- حتى انتِ يا ديانا؟! طب انتِ هتخرجي من هنا ليه؟ عشان ترجعي تاني للشياطين الجعانة تاني؟ على الأقل انتِ هنا في أمان!

- أنا وحَظِّي بقى.. سيبنا نمشي وكل واحد فينا يشوف حظه!

- مفيش حاجة اسمها حظ.. المكان دا بيحميكِ انتِ واللي زيك!

في نهاية البَهو كان هناك شخصان يقتربان منّا، الأول كان زيتون وقد تحوّل إلى نسخةٍ أخرى مِني، يحمل بين يديه ياسمين والتي كانت فاقدة للوعي.

أشعر وكأن نصير دخل إلى رأسي نخارتْ قوتي، تحاملتُ لكي أنطق:

- زيتون! ياسمين!



- ماتخافش.. ياسمين عايشة.. يلا نمشي من هنا!

وما إن نطق زيتون جملتَه الأخيرة حتى اقترب مِنه نصير مسرعًا، ولكن زيتون تفاداه، وضع ياسمين بين يدي في رفقٍ ليعود هو الآخر إلى هيئتِه الأصلية، ويبدأ صراعٌ بين الاثنين امتزَجَ بألوانٍ تعمي الأبصار.

اقترب منَّا عادل ونظر إلَينا بكراهية:

- خلاص كدا الشَّمل اكتمَل؟ يونس وحبيبته والأستاذ أحمد ليل ومعاهم ديانا فوق البيعة!

- خلينا نخرج كلنا من هنا يا عادل.. تعالى نبدأ من جديد!

لهبٌ غريبٌ يخرج من الاثنين، لهب أخضر يندلع من ثنايا زيتون بينما لهب أحمر يُزمجِر غاضبًا من جسد نصير، نتج عنهما شرارة أحدثتْ نارًا في البهو الذي نقف به، وكأن النيران تشعر بكُل الكُره والظلام المُتَّسيطِر على المكان فتَستَشيطُ غضبًا لِتلتَهم كل شِبرٍ من المصحة اللعينة، كلما اقترب أحدهما من الآخر تَدب النيران في أرجاء المصحة، دوائر من نار امتزجتْ بألوانٍ تَحرِق العين كتِنّينٍ غاضِب ينتقِم من مدينة بأكمِلها.

- دقايق والنار هتحرقنا كلنا.. كانت حلوة الرحلة.

قالها عادل وهو ينظر حولَه ليرى كل ما يملك يتحوّل إلى رماد، وبينما هو يشاهد مصحتَه تغوص في بحرٍ من النار شعر بيَدٍ تَجذبُه ليَجِد أحمد ليل يشير إليه ليدنو منه!

بكُل كبرياء واحتقار اقترب عادل من أحمد ليل والذي بدأ في النطق بصعوبةٍ شديدة كَمَن لم ينطق من قبل..

- عادل!

- عايز إيه؟ شايف كل الدمار دا! انت السبب فيه!

- سامحني يا عادل.. صدَّقني يا ابني.. أنا حبِّيت رحمة بجد!

- مافيش حاجة هتقولها ممكن تغفِرلك.. انت عمرك ما فكَّرت غير في نفسك..

- كنت بفكَّر فيك كل يوم.. حبِّيتك زي يونس ويارا.. كنت دايمًا بشوفك من بعيد..

- الأب مش اللي خلِّف ابن في الحرام ورجع بعدها يدوّر عليه.. الأب هو اللي تعب وربَّى يا أحمد يا ليل!

أخرج عادل من جيبِه سِكّينًا صغيرًا، وبلا أي تفكير وبدَمٍ باردٍ وضع نَصلَ السكّين بأكملِه في رقبَة أبي!

بدأتْ الدماء تخرُج من رقبتِه بلا هَوادَة ولا رحمة، أنظر إليهما وأنا في حالةِ عدم تصدِّيق، أرى الآن -فعليًا- كابوسي الأسوأ يحدث أمام عينيّ!

أدفعُ بعادل بعيدًا بيَدٍ وباليَدِ الأخرى أحاول أن أُوقِف بحر الدم، الحياة تغادِر عيون أبي الذي لم أتمكَّن من استعادَته إلى حياتي مرة أخرى. تمنيتُ أن يعيش معي باقي حياتي، تمنيتُ أن نُصبح أصدقاء، تمنيتُ أن نذهب بعد كل تلك السنوات إلى رحلةِ

الصيد التي لم تكتمل في الماضي، تمنيتُ لو كان رأى يارا وضَمَّ حفيدَتَه مريم إلى حِضنِه، تمنيتُ لو كان كل هذا ما حدث.. ولكن، منذ متى وما نتمنَّاه يتحقَّق؟!

- بابا.. بابا!

- خلاص يا يونس.. الفيلم خلص.. قلتلك ماحدّش يخرج من هنا!

- لا فيه يا عادل.. فيه واحد بتحبه واقف وراك عايز يسلم عليك!

وما إن التَفتَ عادل خلفَه حتى ظهر من بين النيران (سيد)، الحالة المُصابة بمرضِ التهام الذات. لم أنسَ هذا اليوم عندما دلفتُ إلى مكتب عادل ورأيتُه وهو ينزَعُ أسنان هذا المسكين، بعد تلك الواقعة بدأتُ في متابعة حالتِه بنفسي، أذهب إلى سيد كل مساء لأتفَقَّده، لأُقَرِّبه مِنّي وأجعله يَكرَه عادل أكثر وأكثر.

الطبيب الجيد هو مَن يُساعد مريضه على الشفاء، أما الطبيب العبقري هو مَن يُسخِّر المرض لصالحه، وأنا قد حوّلتُ سيد من مريض بالتهام الذات إلى مريض التهام، ولكن للبشر.

ذات مساءٍ دلفتُ إلى زنزانتِه وفي يدي هدية صغيرة له، طقم أسنان جديد. أمسك سيد بكل قوتِه بعادل وقام بغَرسِ أسنانه الجديدة كُليًّا في رقبتِه ليَمضُغ لحمَه باستمتاع. نظر إليَّ عادل والدماء تسيل منه ضاحكًا وهو يُجاهد ليتكلَّم بينما الدماء تخرج من فِمِه:

- طلعت فعلًا دكتور شاطر يا يونس!

- قلتلك خلينا نخرج من هنا يا عادل!



نظر كل مِنَّا حوله، النار يعلو لَهيبها ليَصِل إلى السقف، دخانٌ أسود يخرج من كل مكان، ديانا تحيط ياسمين بين ذراعيها تحاول أن تتفادى النيران، أرى النار تلتهم جسد سيد بعدما أَتَمَّ مهمتَه بنجاح، وآخر ما سمعتُه كان عزفًا جميلًا لمقطوعة (مون لايت سوناتا) وضحكات ياسمين في المزرعة وهي تَعِد لَنا طعام الإفطار!

نظرتُ إلى النيران فرأيتُ أمي تبتسم لي، أبي ينظر إليَّ بفخرٍ شديد.

أشعر باللهب يقترب مني!

أغمضتُ عينيّ لأستقبِل الموت كصديقٍ قديمٍ طال انتظاره..

آخر شيء سمعتُه كانت صرخة زيتون!

بعدها توقَّف كل شيء.



تناولت الصحف والأخبار في الأيام القليلة التي تبِعَتْ تلك الليلة:

"احتراق مصحَّة خاصة تعمل في السِّر تحت سطح الأرض..

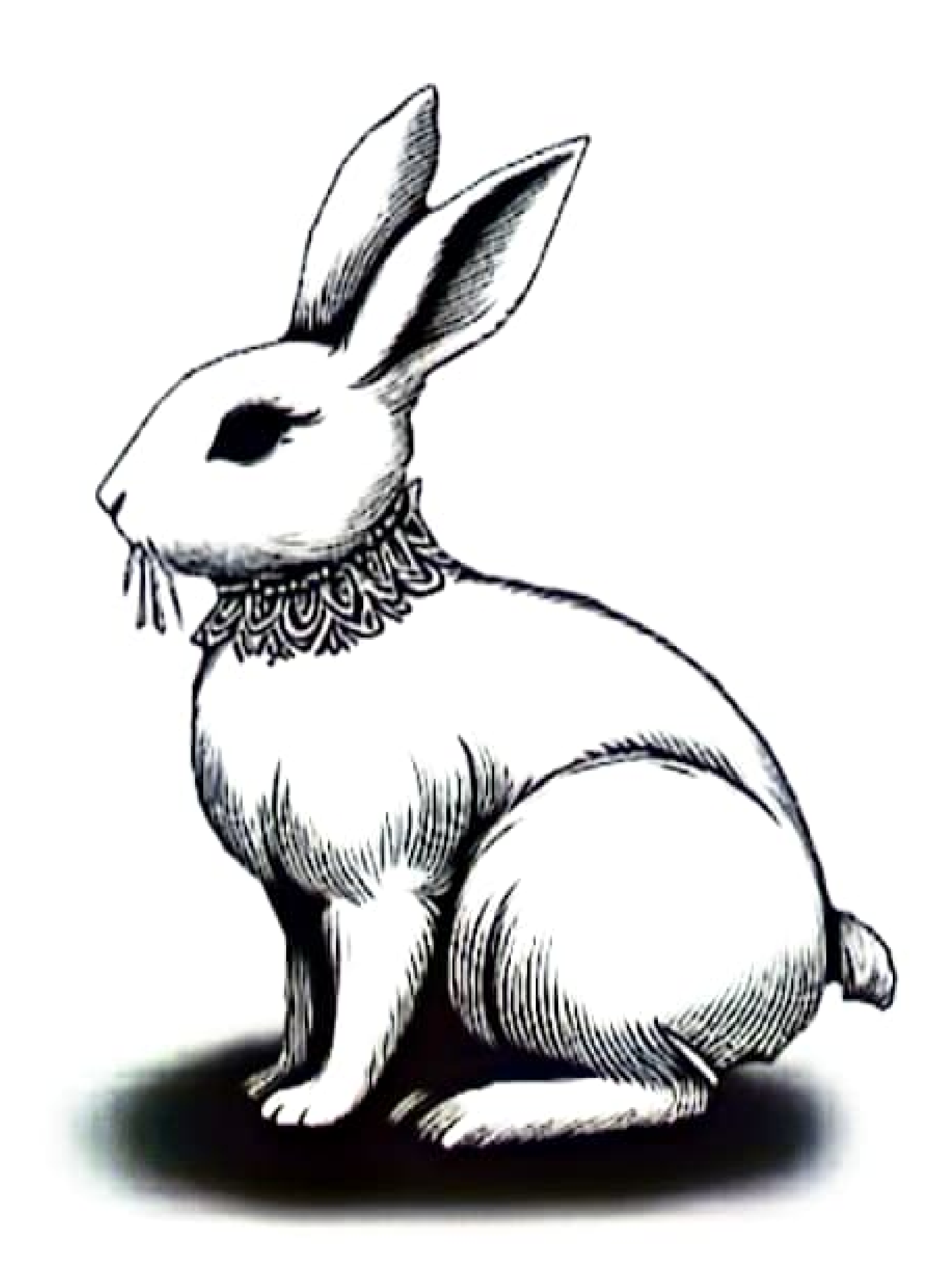
عثرتْ قوات الشرطة ورجال الإطفاء على العشرات من الجُثث المحروقة بالكامل والتي لم يتم التعرف على أصحابها بسبب تفَحُّمهِم كُلِّيًّا".

أشارتْ الصُحف إلى أن المصحة تعود إلى الدكتور (نجيب أسود) والذي كان قد حُرِّرَتْ ضِدّه الكثير من المَحَاضِر لطُرُقه المُريبَة وغير الآدَمِيَّة في العلاج، ويُرَجِّح الكثيرون أن ابنه ووريثه الوحيد (عادل أسود) كان من ضِمن الجُثث المحروقة والمُشَوَّهة بالكامل في الحريق.



الفصل الخامس عشر

بداية جديدة







الإسكندرية -بعد الحريق بعدة أعوام.

كُنّا في مُنتصف شهر يناير، ولكن الجو كان صيفيًّا جميلًا رغم كل شيء. ارتديتُ قميصًا أبيض خفيفًا و(شورت) أزرق، وخرجتُ لأقِف أمام البحر حافي القدمين. الساعة في يدي تشير إلى الثامنة صباحًا، القرية الساحلية خالية تقريبًا مِن البشر في هذا الوقت من العام، مشيتُ قليلًا مُستمتعًا بمَلمَسِ الرِمال في قدمي، أشعلتُ سيجارَتي وجلستُ على مقعدٍ خَشَبيّ صغير أتأمَّلُ الصفاء والهدوء، أستنشِقُ الهواء وأُخرِجُه في ارتياحٍ وسلام، أستمِعُ إلى موجِ البحر والذي أكاد أُقسم أنني أسمعه يُدندِن إحدى أُغنيات (أنغام) ولكن بطريقتِه الخاصة.

أنظر إلى تلك الحُروق المُلتئِمة في جسدي، والتي ورغم مرور عدة أعوامٍ على الحادث إلا أنها تركتْ بعض الآثار الطَفيفة والتي لا أكترِث لها كثيرًا. حروقٌ تُذكِّرني بحربٍ خضتُها لأجِد نفسي أخيرًا.

أشعر بيَدٍ تحتَضِنُني من الخلف، فأَضُمّها إليَّ برِفق. كم هي جميلة في هذا الفستان الأصفر والذي زُيّنَ ببعض الرسومات لزهرة عباد

الشمس!

أنظر إلى عينيها المُدهشة وأُقبِّلُها..

- إيه اللي مصحيك بَدري كدا؟!

- الجو حلو أوي النهاردا.. قلت بلاش أضيّع منه ولا ساعة.

- أحضَّرلَك الفطار؟!

- صحِّي أحمد ومنال عشان يفطروا معانا.

- حاضر يا حبيبي. لما أندَهلَك تعالى على الفيلا!

- أوامرك يا ياسمين هانم. لو هتعملي جبنة زوِّدي عليها زيتون!

- عيوني.

عادت ياسمين إلى الفيلا بينما عدتُ مرةً أخرى إلى البحر وإلى سيجارتي التي قاربَتْ على الانتهاء.

أغمضتُ عينيّ وعدتُ برَأسي إلى الوراء، عدتُ إلى تلك الليلة التي انتهى بها كل شيء. آخر ما أتذكَّره أنني أغمضتُ عينيّ وفقدتُ الوَعي بسبب الاختناق من الدخان، أغمضتُ عينيَّ مُستقبِلًا الموت الذي طال انتظاره، ولكن عندما عاد الوعي مرة أخرى كنتُ لا أزال على قَيدِ الحياة، أراد الله أن يمنحني فرصةً أُخرى لبدايةٍ جديدة.

أيامٌ قضيتُها في المستشفى مع ياسمين وديانا حتى تحسنَّا ثلاثتنا، ثم عدتُ بهما إلى القاهرة، إلى منزل يارا التي تجمَّدَتْ في مكانها



عندما رأتْ ياسمين على قيد الحياة. تركتُهما هناك واستقليتُ أول طائرة متجهة إلى أسوان، كانت الجدة ونجي تجلس أمام المنزل تحمل بين يديها طفلًا صغيرًا شديد الجمال، ابتسمتْ في أسى عندما ألقيتُ عليها السلام وناولتّني الطفل في رفق..

- ابنك يا يونس.. مستنّيك عشان تسميه.

- عصفورة...

- عصفورة ماتت وهي بتولد ابنَك يا حبيبي.. آخر حاجة قالتها إنها عايزاك تسامحها!

- ما افتكِرش إني قوي للدرجة دي يا جدة ونجي.. ربنا بقى اللي بيسامح.

- خد ابنك وعيش حياتك يا ابني. على فكرة يا يونس.. ماحدّش فينا كان عايز ليك الأذى!

- انتِ قولتيها ليا مرة زمان ومافهِمتِش معناها.. ولما فهمت كان الوقت اتأخر.. لازم أبطَّل أنبَهر بالدهب شوية.. الفضة جميلة برضه!

- مش هتقولي هتسميه إيه يا ابني؟!

- أحمد يا جدة ونجي.. أحمد يونس أحمد ليل.

شهورٌ تمُر وأنا لا أُفارِق ياسمين، أساعدها كي تتذكَّر، أُساعدُها لتعود ياسمين التي أعرفها مرة أخرى.

لم تتركني ديانا، ظلَّت معنا تساعدني وتساعد ياسمين حتى بدأتْ



حالتها وذاكرتها في التحسُّن بعد ثلاث سنوات، أقمتُ لياسمين فرحًا جديدًا على شاطئ البحر، وبعد عامٍ رزقنا الله بابنتِنا الجميلة (منال)، والتي أسميتُها على اسم أمي.

تركتُ كل شيء خلفي، ولكن بحَقٍ هذه المرة، أصبحتُ أُقيم في فيلا الساحل صيفًا وشتاءً، تعافيتُ من كوابيسي، تعافيتُ من ظنوني وضعفي، وهبتْني الحياةُ فرصةً أخرى كي أُصبح إنسانًا يُدرك جيدًا معنى كلمة أن تحيا.

تعافيت من عملي كطبيب نفسي، أصبحت لا أساعد الا قليلا وعن طريق الهاتف فقط، اذا أراد أحد أن يستشيرني في حالة ما أو قضية مثل صديقي المحقق الشهير (طه) أو غيره، فقط لحنيني الدائم لمهنتي الملعونة، الا انني رميت ورائي فكرة أن أعود لتلك المهنة مرة أخرى مهما كانت المغريات.

أتَمَّ زيتون مُهمَته في حياتي، كان يوم إنقاذه لنا هو اليوم الأخير له في حياتي، لم يظهر ولم أسمعه حتى طوال تلك السنوات، وكأنني ولدتُ من جديد.

كان الإفطار شهيًا حقًا، أحمد يعشق الزيتون مِثلي، ويُحب الصيد أيضًا. أعلم جيدًا أننا سنذهب سويًا إلى الكثير والكثير من رحلات الصيد، وسنُصبح أفضل أصدقاء. أمَّا منال فورِثَتْ رِقة وجمال ياسمين، تُشبهها كثيرًا وخصوصًا في حب الحيوانات.

كان كل شيءٍ يفوق الكمال بمراحل كثيرة، حتى سمعتُ ذات مساءٍ صوت جرس الفيلا يرن، فذهبتُ لأفتَح الباب، ولكن الغريب أنني لم أجِد أحدًا هناك، باستثناء صندوقٍ صغير!



نظرتُ جيدًا ولكن لم يكن هناك أثر لأي شخص، فأخذتُ الصندوق وعدتُ إلى الداخل، جلستُ على مقعدي المُفضَّل وفتحتُ العلبة لأجد شيئًا عجيبًا، كان قناع الأرنب يقبَعُ في الصندوق إلى جانبِهِ ورقة صغيرة كُتِب عليها:

"إلى صديقي العزيز يونس ليل:

يا رب تكون في أفضل صحة!

جوا العلبة شيء يخصَّك من سنين..

دا الوقت إنه يرجعلك تاني وتعرف السر الحقيقي ورا كل اللي بيحصلك".

صديقَك:

حاتم نور.

عَــ الشط استَنّي رايحة فين..

دا أنا ليكِ بغَنّي غنوتين..

غنوة عن الآهة والحنين..

وغنوة لعنيكِ.. يا حَنين!



عن الكاتب:

- كاتب مصري من مواليد الإسكندرية 1992
- تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون
- حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة **Bedfordshire** البريطانية
- صدر له 10 أعمال أدبية
- يعمل في مجال التسويق والإعلانات كمدير ابداعي ومعد للبرامج
- كتب للتلفزيون (المخبر - راجل و2 ستات)
- كتب برامج اونلاين (كراكيب - حواديت نص الليل)
- كتب واخرج العديد من الإعلانات
- كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية
- تصدرت روايته "كوابيس قبل النوم" قائمة الأكثر مبيعا وتُرجمت الى الانجليزية
- تصدرت رواياته في حضرة الموت والسكان الأصليين للقلب قائمة الأكثر مبيعا

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري



- آخر أيام آدم

- زي كل سنة

- كوابيس قبل النوم 1 (تُرجمت للإنجليزية)

- كوابيس قبل النوم 2

- في حضرة الموت

- بتوقيت الفراق

- السكان الأصليين للقلب

- اختفاء السيد ديفينهايم (ترجمة)

- كوابيس قبل النوم 3

للتواصل مع الكاتب..








٢٧٠٦٠٩٠٢٩٤

